أقدم النماذج الشعرية

إذا كان أقصى مرامنا أن نتبين متى تـفشت العامية في الجزيرة العربية لدرجة أنهم صاروا ينظمون بها شعرهم فإنه حسبنا العثور ولو على بيت واحد من الشعر العامي الذي نعرف بدون شك نسبته والعصر الذي قيل فيه. وهنا تتجه الأنظار عادة إلى مقدمة ابن خلدون التي ظلت حتـى الآن من أهم وأقدم المصادر التي يمكن الاستفادة منـها لسد الفجوة الزمنية الواسعة التي تفصل ما بين الشعر الجاهلي والشعر النبطي. إلا أن هناك دلائل تشير إلى أن الشاعر أبا حمزة العامري ربما كان أقدم من ابن خلدون وبذلك يكون رائد شعراء النبط وأقدم شاعر نبطي حفظ لنا التاريخ شعره، هذا عدا أن أقدم نص يرد فيه مسمى «نبطي» للدلالة على هذا الشعر هو بيت من أبيات أحد قصائد أبي حمزة، مما يدل على شيوع التسمية وتداولها منذ ذلك الوقت.

بنو هلال والشعر النبطي

ابن خلدون (١٩٨٨، ج١: ٨٠٥-٨١٦، ج٦: ٢٣-٢٤, ٣٢, ٦٢) هو أول من نبه، وإن بصورة مقتضبة عـاجلة، إلى أهمية دراسة شعر البدو وأورد في مقدمته وفي بداية الجزء السادس من تاريخـه عينات من قصائد بدو بني هلال. إلا أن هناك بعض التساؤلات التي لا بد من التحقق منها قبل البت النهائي في دقة ما ذكره ابن خلدون في مقدمته عن الشعر البدوي بوجه عام وفي قيمة المقطوعات التي أوردها كنماذج لبدايات الشعر النبطي وشعر السيرة. من هذه التـساؤلات مثلا: متى قيلت هذه الأشعار؛ أثناء التغريبة أم بعدها؟ من قالها؟ هل هم الأشخاص الذين تنسب إليهم أم أحفادهم الذين أرادوا تسجيل أمجاد أسلافهم وتخليد ذكراهم؟ هل الأسماء التي نسب ابن خلدون هذه المقطوعات إلـيها شخصيات حقيقـية لها وجود تاريخي أم أنها من اخـتراع القصاص ومنشدي السيرة؟ هل تلقى ابن خلدون المقطوعات التي أوردها مشافهة من الرواة أم أنه عثر عليها مخطوطة؟ هل هذه الأشعار بداية الشعر النبطي أم بداية شعر السيرة؟

وقد اختلف العلماء والمختصون حول طبيعة هذه الأشعار الهلالية وقيمتها التاريخية. يرى الدكتور عبدالحميد يونس في كتابه الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي أن القصائد

الهلالية التي أوردها ابن خلدون تمثل الطور الغنائي الخالص للسيرة الهلالية والذي كان سائدا قبل القرن السادس الهجري وتلاه من بعد القرن الثامن الطور القصصي. ويرى يونس أن ما ذكره ابن خلدون في مقدمته وفي تاريخه عن بني هلال قد لا يكون دقيقا من الناحية التاريخية لكنه «يدل بجلاء على أن سيرة بني هلال كانت حية نامية من الناحية الأدبية على الأقل في عهد هذا المؤرخ الكبير.» (يونس ١٩٦٨: ١٣٨).

أما علماؤنا في نجد والجزيرة العربية فإنهم يرون أن النماذج الشعرية التي أوردها ابن خلدون تمثل المرحلة الانتقالية من الشعر الفصيح إلى الشعر النبطي. وأول من ألمح إلى هذا الرأي وأوعز به خالد الفرج في مقدمته لمجموعة ديوان النبط: مجموعة من الشعر العامي في نجد حيث يقول «على أن أقدم ما وصل إلينا من الشعر العامي في نجد هو أشعار بني هلال وما أورده لهم ابن خلدون في مقدمته من أشعار لا تختلف عما هي عليه الآن أشعار أهل نجد.» (الفرج ١٣٧١، ج١: ز–ح). وقد دفع شيخنا أبو عبدالرحمن بن عقيل بهذه الفكرة إلى حدودها اللامعقولة في تأكيده على أنه تم تصدير هذه الأشعار الهلالية من المغرب إلى الجزيرة العربية لتصبح النواة التي أنبتت الشعر النبطي، أو هكذا يفهم من قوله:

> لغة العرب في عصر ابن خلدون بالمغرب وغيره هي بداية البداية للشعر العامي بلهجة أهل نجد.
>
> وفد هذا الشعر العامي إلى نجد ولم يصدر منها، وتعشقته قبائل نجد بتأثير السحر الملحمي الأسطوري في أدب اللغة الهلالية في عهود الفروسية العربية.
>
> واعتبرتُ هذا الشعر الهلالي العامي بداية البداية، لأن فيه ما ليس من عامية أهل نجد. (ابن عقيل ١٤٠٢: ٥١).

وبعد أن يورد بعض النماذج من شعر بني هلال يردف ابن عقيل قائلا:

> إن شكل هذه القصائد ومنهجها هو المثال الذي احتذاه الشعر العامي بلهجة أهل نجد . . وبدراسة عاجلة للشعر الهلالي الذي دونه ابن خلدون أو دونته الأسطورة ثم مقارنة ذلك بالدراسة العاجلة للشعر العامي النجدي في بدايته فإن نتيجة المقارنة تسلمنا إلى الجزم بأن الشعر العامي بلهجة أهل نجد وليد الشعر الهلالي العامي. (ابن عقيل ١٤٠٢: ٥١–٥٢).

لقد سرد ابن خلدون النماذج التي أوردها في مقدمته من الشعر البدوي بطريقة مضللة إلى حد ما قد توهم القارئ المستعجل بأن هذه النماذج تنتمي إلى نفس الجنس. إلا أن هذا المسرد يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أجناس: ١) قصيدة المرأة الحورانية والتي تقف في مواجهة بقية القصائد وتتميز عنها في كونها تأتي فعلا من بادية الجزيرة العربية وليس من بادية المغرب وهي بذلك تعتبر مثالا جيدا لبدايات الشعر النبطي، وإن كانت

هي المثـال الوحيد الذي يقدمـه ابن خلدون على هذا الـلون من الشعر البـدوي، أما القصائد الهلالية فإن منها ٢) أشعارا ذاتية تاريخية لا نشك في نسبتها وهي التي نعتبرها بدايات شعر الملحون في شمال أفريقيا، ومنها ٣) أشعار تدخل في نطاق السيرة الهلالية وتعتبر الإرهاصات الأولى لها.

مما عزز توهم علماؤنا أن القصائد الهلالية التي أوردها ابن خلدون في مقدمته تمثل في مجملها بدايات الشعر النبطي تأكيده على أن شعر البدو في عصره يمثل امتدادا طبيعيا للنمط الجاهلي في نـظم الشعر. ويوحي طرح ابن خلدون النظري وكما عبر عنـه في مقدمته بأنه يتحدث عن الأشعار التي يتداولها أبناء البادية في الجزيرة العربية. لكن ما ساقه من قصائد هلالية يؤكد أن حديثه عن شعر البدو جاء بناء على معايشته لبقايا بادية بني هلال في بلاد المغرب وليـس بدو الجزيرة العربية بالذات والذين من المرجح أن معرفته بهم آنذاك لم تكن مباشرة. وقد أشرنا من قبل إلى انقطاع رحلات الطلب وإلى أن الجزيرة العربية أصبحت منذ زمن بعيد مغلقة وشبه معزولة عن العالم الخارجي. ومع ذلك فإنه من الواضح أن ابن خلدون حاول أن يستقصي الوضع في بادية الجزيرة العربية ويتعرف على الأسماء المتداولة في شمال الجزيرة وشرقها لهذا اللون من الشعر. يقول ابن خلدون في مقدمته:

> أما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر، فيقرضون الشعر لـهذا العهد في سائر الأعاريـض على ما كان عليه سلفهم المستـعربون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ويستطردون في الخروج من فـن إلى فن في الكلام. وربما هـجموا على المقـصود لأول كلامهم وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون. فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأصمعـيات نسبة إلى الأصمعي راوية العرب في أشعارهم. وأهل المشرق مـن العرب يسمّون هذا الـنوع من الشعر بالـبدويّ والحوراني والقيـسي. وربما يلحّنون فيه ألحانا بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقيّة. ثم يغنّون به ويسمون الغناء به باسم الحورانيّ نسبة إلى حـوران من أطراف العراق والشام وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد. (ابن خلدون ١٩٨٨، ج١: ٨٠٥-٨٠٦).

التسميات التي يـوردها ابن خلدون في الاقتباس السابق ليسـت من اختراعه وإنما كانت متداولة بين الناس في بوادي الجزيرة العربية فسجلها وحفظها. وربما كانت هذه التسميات متداولة بين عرب بني هلال توارثـوها من أجدادهم الذين جلبوها معهم من الجزيرة العربية. ويورد ابن خلدون هذه الأسماء بصورة مقتضبة وسريعة مما قد يقود إلى الخلط في المفاهيم بالنسبة للأسماء التي قال بأن أهل المشرق يستخدمونها في الإشارة

لما أصبحنا الآن نسميه بالشعر النبطي. أرى أن «قيسي» و«بدوي» من الأسماء التي تطلق على هذا الشعر كفن أدبي، وهو ما يقابل قولنا «نبطي» أو «عامي» أو «شعبي». أما «حوراني» فإنه، على ما يبدو من كلام ابن خلدون في الاقتباس السابق، اسم لحن من الألحان التي يغنى بها هذا الشعر، مثل قولنا «صخري» في أحد ألحان الربابة المنسوبة إلى قبيلة بني صخر، أو قولنا لحن «جوفي» نسبة إلى الجوف، وهكذا. ونسبة الشعر إلى قيس وحوران قد لا تخلو من دلالة لها أهميتها. من المعروف لدى علماء العربية أن منطقة حوران في شمال الجزيرة العربية ومنطقة البحرين في شرقها، حيث تسكن قبائل قيس، من مناطق الأطراف البعيدة عن مناطق الفصاحة القحة والاستشهاد اللغوي في قلب الجزيرة العربية. فمنذ أيام الجاهلية كانت لغة عرب تلك المناطق لا يحتج بها ولا يعدون من العرب الفصحاء بمقاييس النحويين القدماء وعلماء اللغة الكلاسيكيين. وتدل الشواهد على أن اللحن بدأ يتفشى في عربية سكان تلك الأطراف قبل نجد ووسط الجزيرة وكان كلامهم أسرع في التحول من النسق الفصيح إلى النسق العامي. ولكن هذا لا ينفي أن أصل الشعر النبطي عربي لا نبطي وأنه امتداد للشعر العربي القديم، لأن القبائل التي جاءتنا منها أقدم نماذجه قبائل عربية وليست نبطية، وإن «فسدت» لغتها. هذا عدا كون هذه النماذج تمثل مرحلة انتقال طبيعية متدرجة من الفصحى إلى العامية. ويؤكد ابن خلدون على أن حوران من منازل عرب البادية ومساكنهم، بمعنى أنه حتى لو جاء هذا الشعر من منطقة حوران التي تقع على أطراف العراق ومشارف الشام فإن من يتعاطونه وينظمونه ويتغنون به هم من عرب البادية الأقحاح وليسوا من الأنباط ولا من شعراء الحاضرة. كما تشير المسميات «قيسي» و«بدوي» على عروبة هذا الشعر وأعرابيته، فلا أحد يشك في بداوة قبائل قيس ولا يطعن في انتمائها إلى الجنس العربي.

رغم اهتمام ابن خلدون على المستوى النظري بوضع الشعر لدى بدو الجزيرة العربية فإن جل ما قدمه من قصائد جاء من بدو شمال أفريقيا وليس من بدو الجزيرة العربية. الاستثناء الوحيد هي المقطوعة الأخيرة من النماذج التي يسوقها في المقدمة، وتقع في ستة أبيات فقط. ويقدم ابن خلدون المقطوعة بقوله «ومن شعر عرب نمر بنواحي حوران لامرأة قتل زوجها فبعثت إلى أحلافه من قيس تغريهم بطلب ثأره». هذه المقطوعة القصيرة هي المثال الوحيد الذي يأخذه ابن خلدون من بدو الجزيرة العربية، وبحكم أنها جاءت من بادية حوران شمال الجزيرة العربية تكون أقرب النماذج إلى ما

نسميه الآن بالشعر النبطي ولذلك يمكن اعتبارها نموذجا جيدا يمثل بدايات الشعر النبطي ويعكس اللغة الشعرية بين بدو الجزيرة العربية في طور انتقالها من الفصحى إلى العامية. وبقياس الماضي على الحاضر فإن في حوران وإلى عهد قريب شعر لا يختلف عن شعر البادية في الجزيرة العربية إلا بقدر ما يمليه اختلاف اللهجة. وقد قمت في عام ١٩٩٣ بزيارة إلى منطقة السويداء وجبل العرب في سورية وجمعت من هناك سوالف وأشعاراً مما يدخل في صميم الموروث النبطي/البدوي في تعريفه الشمولي.

وقبل أن نورد قصيدة المرأة الحورانية نود التنبيه على أن معظم القصائد الهلالية التي وردت في مقدمة ابن خلدون وتاريخه قد نال منها التحريف والتصحيف لدرجة لم يعد من السهل قراءتها وإقامة وزنها وفهمها والتحقق من لغتها وطريقة التلفظ بها. وصفحات المقدمة التي ترد فيها القصائد الهلالية من أصعب الصفحات على المحققين ولا نجد بين جميع النسخ المطبوعة والمحققة والمترجمة من المقدمة من لا يخطئ أخطاء فادحة في كتابة هذه الأشعار وفهمها، بل إن بعض المحققين يقفز الفصل الذي ترد فيه هذه الأشعار ولا يورده البتة. وعند العودة إلى بعض النسخ المخطوطة من المقدمة بدأ يساورني الشك في أن ابن خلدون نفسه ربما لم يكن متمكنا كل التمكن من فهم ما يخطه قلمه من أشعار بدوية. ابن خلدون فيلسوف موسوعي لا نتوقع منه أن يجيد كل فن أو علم يتطرق إليه إجادة تامة ويحيط بكل دقائق الموضوع وتفاصيله المتشعبة. أدرك ابن خلدون ببصيرته العلمية ونظرته الفلسفية أهمية الأشعار التي سمعها من بدو بني هلال أو تلقاها منهم كتابة، لكنه بحكم ثقافته الفصيحة وحياته المدنية كان بعيدا عن نطق هذه الأشعار نطقا صحيحا وفهمها فهما دقيقا، ولذلك فلربما ارتكب بعض الأخطاء في كتابتها، كما تشير إلى ذلك النسخ المخطوطة من مقدمته. ومما يفاقم المشكلة بالنسبة للنسخ المنشورة أن المحققين والمترجمين أبعد بكثير من ابن خلدون عن فهم هذه الأشعار مما يزيد في مراكمة الأخطاء. وفي رأيي أن هذا الجزء من المقدمة يحتاج تحقيقه إلى متخصص له معرفة بالشعر النبطي ولغته ليتمكن من توجيه المعنى وإقامة الوزن في الأشعار الهلالية وكتابتها كتابة صحيحة وشرحها شرحا دقيقا، نظرا لقربها من الشعر النبطي في اللغة والبناء الفني. من له اطلاع على الشعر النبطي مثلا سوف يقرأ «كن السفا» بدلا من «كان الشفا» في عجز البيت الثاني من أبيات الحورانية، ويقرأ «أياحيف» بدلا من «أياحين» في بداية البيت الأخير. ولقد حاولت أن أصحح

بنفسي بعض الأخطاء في النماذج التي أوردتها في هذا الفصل ووضعت خطا تحت هذه التصحيحات ليتنبه لها القارئ. تقول المرأة الحورانية:

تقولُ فتاة الحيّ أمّ سلامةٍ	**بعينٍ أراع اللهُ من لا رثى لها**
تبيت طوال الليل ما تالف الكرى	**موجّعةً كن السفا في مجالها**
على ما جرى في دارها لابو عيالها	**بلحظةِ عينِ البينُ غيّرَ حالها**
فقدنا شهاب الدين ياقيس كلكم	**ونمتوا عن اخذ الثار ما ذا مقالها**
انا قلت اذا ورد الكتاب يسرني	**ويبرد من نيران قلبي ذبالها**
أياحيف تسريح الذوايب واللحى	**وبيض العذارى ما حميتوا جمالها**

ومما يسترعي الانتباه في أبيات الحورانية أمران؛ أولهما أنها تنتسب إلى قيس، وأحد الأسماء التي أوردها ابن خلدون لهذا اللون من الشعر مسمى «قيسي». والأمر الآخر أنها من منطقة حوران التي تنسب إليها بعض الألحان التي يغنى بها هذا الشعر كما يقول ابن خلدون في الاقتباس السابق «وربما يلحنون فيه ألحانا بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية. ثم يغنون به ويسمون الغناء به باسم الحوراني نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد». وتؤكد بعض مخطوطات المقدمة أن المرأة الحورانية بدوية وتقدم القصيدة بقولها «ومن شعر عرب البرية» بدلا من «عرب نمر». وهذا مما يجعل من هذه الأبيات نصا نفيسا دلالته بالغة الأهمية بالنسبة لنشأة الشعر النبطي وبداياته الأولى. من أهم هذه الدلالات أن فصاحة هذا النص الذي يحتل موقعا وسطا بين الفصحى والعامية ليس مردها إلى التعليم والدراسة لأن القائلة بدوية أمية والبدو عادة لا يتعلمون في المدارس، وبالأخص نساءهم. كما أن عامية النص ليس مردها إلى أن القائلة من النبط أو العجم، بل هي أعرابية من قيس. نستطيع أن نقول بكل ثقة واطمئنان إننا أمام نص شفهي أبدعته قريحة أمية لغتها فطرية سليقية. أي أن هذا النص يعكس حقيقة الوضع الذي كانت عليه لغة الشعر البدوي في ذلك العصر، وهي لغة لم تفقد كل مقومات الفصاحة لكن شوائب العامية بدأت تظهر عليها بوضوح، لا من حيث النحو ولا من حيث المفردات والعبارات. استقامة الوزن مثلا تتطلب منا تشكيل بعض الكلمات وتحريكها حسب النظام الفصيح في النطق. وفي الوقت نفسه تحتم علينا استقامة الوزن نطق بعض الكلمات نطقا عاميا. هذا عدا بعض العبارات العامية مثل «كن السفا»، «ياحيف»، «بيض العذارى»، الخ.

كما أنها تتمشى من الناحية اللهجية مع كلام أهل الجزيرة، على خلاف القصائد الهلالية التي بدأت تظهر عليها سمات لهجة أهل المغرب، كما سنرى بعد قليل.

ونحن لا نعرف متى قتل الرجل الذي رثته زوجته الحورانية، لكن من المحتمل أن ذلك حدث قبل زمن ابن خلدون بفترة غير قصيرة. وبذلك تكون هذه المقطوعة من أقدم النماذج التي وصلتنا من الشعر العامي من بادية الجزيرة العربية وهي تقدم برهانا قاطعا على أنه في القرن الثامن الهجري، عصر ابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ)، كانت العامية قد طغت وأصبحت لغة الشعر في الصحراء العربية وبادية الشام. وشيوع التسميات «قيسي» و«حوراني» و«بدوي» بين أهل المشرق، كما يقول ابن خلدون، يفيد تفشي هذا الشعر الملحون قبل وقت ابن خلدون بين أبناء القبائل البدوية في شرق الجزيرة العربية وشمالها؛ لأن مواطن القبائل القيسية، كما هو معروف، هو شرق الجزيرة وشمالها، وبادية حوران هي المنطقة الفاصلة بين شمال الجزيرة وبلاد الشام.

ما عدا قصيدة المرأة الحورانية فإن باقي النماذج التي أوردها ابن خلدون في مقدمته كلها من أشعار بني هلال بعد هجرتهم إلى المغرب العربي. ومن المعلوم أن بني هلال وبني سليم بدأوا هجرتهم من جزيرة العرب على شكل موجات بشرية منذ نهاية القرن الرابع الهجري وكانت لغتهم، فيما يقال، فصيحة آنذاك وشعرهم فصيح. وبعد مرورهم على العراق والشام واستقرارهم لبعض الوقت في مصر اجتازوا إلى المغرب في أواسط المائة الخامسة. أي أن ابن خلدون جاء ليكتب عن بني هلال وسليم بعد حوالي أربعمائة سنة من تركهم لجزيرة العرب وثلاثمائة سنة من استقرارهم في المغرب. أي أن هذه القصائد كلها جاءت في وقت متأخر ربما تجاوز مائتي سنة من قدوم بني هلال إلى المغرب بعد أن بدأت لهجة الهلاليين في شمال أفريقيا تختلف عن لهجة أسلافهم في جزيرة العرب وبعد أن قطعوا صلتهم بعرب الجزيرة. من بين هذه النماذج قصائد قالها المتأخرون منهم، وبعضهم ممن عاصرهم ابن خلدون. وهذه لا نشك في نسبتها ولا في تاريخية الأحداث التي تتطرق إليها ولا في حقيقة وجود الأشخاص الذين قالوها أو وردت أسماءهم فيها. هذه القصائد ينسبها ابن خلدون إلى قائليها من رجالات بني هلال الذين عاصر بعضهم والذين يذكر أسماءهم ويحدد المناسبات التي قالوا فيها قصائدهم. من هذه القصائد قصيدة يوردها ابن خلدون قبل قصيدة المرأة الحورانية لأمير من أمراء بني هلال كان قد وجهها إلى منصور ابو علي. ويقدم ابن خلدون للقصيدة بقوله «ومن

شعر علي بن عمر بن إبراهيم من رؤساء بني عامر لهذا العهد أحد بطون زغبة يعاتب بني عمه المتطاولين إلى رياسته». ومنها هذه الأبيات (وقد صححت كلمة «يشوف» في الشطر الأول من البيت الثالث لتصبح «يشوق» كما صححت كلمة «شرب» في السطر الثاني من البيت الرابع لتصبح «سرب»):

ألى يا ربوعٍ كان بالأمس عامر   بحيٍّ وحلّه والقطين لمام
وغيدٍ تداني للخطا في ملاعب   دجى الليل فيهم ساهرٍ ونيام
ونعمٍ يشوق الناظرين التمامه   ليا ما بدا من مفرقٍ وكظام
وغدفٍ دياسمها يروعوا مربّها   واطلاق من سرب المها ونعام
واليوم ما بيها سوى البوم حولها   ينوحوا على اطلالٍ لها وحمام
وقفنا بها طورٍ طويلٍ نسالها   بعينٍ سخينٍ والدموع جمام
ولا صح لي منها سوى وحش خاطري   وسقمي من اسبابٍ عرفت وهام
ومن بعد ذا تدّي لمنصور بو علي   سلامٍ ومن بعد السلام سلام

ويقدم ابن خلدون القصيدة السابقة لهذه القصيدة بقوله «ومن قول خالد (بن حمزة بن عمر شيخ الكعوب) يعاتب إخوانه في موالاة شيخ الموحدين أبي محمد بن تافراكين المستبد بحجابة السلطان بتونس على سلطانها مكفولة أبي اسحق ابن السلطان أبي يحيى وذلك فيما قرب من عصرنا». ونورد منها هذه الأبيات:

يقول بلا جهلٍ فتى الجود خالد   مقالة قوّالٍ وقال صواب
مقالة حَبْرٍ ذات ذهنٍ ولم يكن   هريجٍ ولا فيما يقول ذهاب
تفوّهت بادي شرحها عن مآرب   جرت من رجالٍ في القبيل قْراب
بني كعبٍ ادنى الأقربين لدمّنا   بني عم منهم شايب وشباب

لاحظ في البيت الثاني استخدام «ذات ذهن» بدلا من «ذو ذهن»، وتنتشر ظاهرة استخدام الأسماء الخمسة بطريقة خاطئة في الشعر الهلالي وكذلك في الشعر النبطي القديم. كما نلاحظ اختلاف قاموس الشعر الهلالي عن قاموس الشعر النبطي في استخدام كلمات مثل «هريج» في الشطر الثاني من البيت الثاني بمعنى ثرثار وكلمة «قبيل» في الشطر الثاني من البيت الثالث بمعنى قبيلة.

وترد قبل هذه القصيدة قصيدة أخرى لخالد بن حمزة يقدمها ابن خلدون بقوله «ومن أشعار المتأخرين منهم قول خالد بن حمزة بن عُمر، شيخ الكعوب، من أولاد أبي

الليل، يعاتب أقتالهم أولاد مهلهل ويجيب شاعرهم شبل بن مسكيانة بن مهلهل، عن أبيات فخر عليهم فيها بقومه». ونورد منها الأبيات التالية:

يقول وذا قول المصاب الذي نشا قوارع قيفانٍ يعاني صعابها
مغربلةٍ عن ناقدٍ في غضونها محكّمة القيفان دابي ودابها
وهيّض بتذكاري لها ياذوي الندى قوارع من شبلٍ وهذي جوابها
ياشبل جتنا من حذاكم طرايف قرايح يريح الموجعين الغنا بها
فخرت ولم تقصر ولا أنت عادم سوى قلت في جمهورها ما أعابها

وقد صححت كلمة «قيعان» في الشطر الثاني من البيت الأول ومن البيت الثاني بكلمة لها معنى ودلالة وهي «قيفان» بمعنى قوافي، أي أبيات شعرية، وهي كلمة معروفة لدى شعراء النبط؛ كما صححت كلمة «فراح» في بداية الشطر الثاني من البيت الرابع لتصبح «قرايح» أي أشعار من القريحة؛ وفي الشطر الأول من البيت الرابع لم يتبين لي معنى البيت في المصادر المخطوطة والمطبوعة لذلك وجهت المعنى على ما أثبتّه هنا.

وهذه أبيات من قصيدة سلطان بن مظفر بن يحيى من الزواودة أحد بطون رياح وأهل الرئاسة فيهم قالها في معتقله بالمهدية في سجن الأمير أبي زكريا بن أبي حفص أول ملوك أفريقية من الموحدين يحن فيها إلى قومه ويتوجد على رؤيتهم. والقصيدة تذكرنا بقصيدة راكان بن حثلين، شيخ قبيلة العجمان، التي قالها وهو في سجن الأتراك ومطلعها: أنا اخيل ياحمزه سنا نوض بارق. (وقد صححت كلمة «يفينا» في الشطر الثاني من البيت الثامن واستبدلت بها كلمة «بغين»، والغين هي حدائق النخل الظليلة):

وكم من رداحٍ أسهرتني ولم أرى من الخلق أبهى من نظام ابتسامها
وكم غيرها من كاعبٍ مرجحنّه مطرّزة الأجفان باهي وشامها
أرى في الفلا بالعين أظعان عزوتي ورمحي على كتفي وسيري أمامها
بجرعا عتاق النوق من فوق شامس أحب بلاد الله عندي حشامها
إلى منزلٍ بالجعفريات للّوى مقيمٍ بها، ما الذ عندي مقامها!
ونلفي سراةٍ من هلال بن عامر يزيل الصدا والغل عني سلامها
بهم تضرب الأمثال شرقٍ ومغرب إذا قاتلوا قومٍ سريع انهزامها
عليهم ومن هو في حماهم تحيه مدى الدهر ما غنّى بغينٍ حمامها
فدع ذا ولا تأسف على ماضيٍ مضى فذى الدنيا ما دامت لحيٍ دوامها

وإضافة إلى هذه القصائد التي ذكرها ابن خلدون في مقدمته والتي لا نشك في نسبتها ولا في صحة الأحداث التي تتحدث عنها، يذكر كذلك في بداية الجزء السادس من تاريخه (١٩٨٨، ج٦: ٢٣-٢٤, ٣٢, ٦٢) تفاصيل عن بني هلال ويورد لهم مزيدا من الأشعار منها أبيات في مدح دريد، أحد بطون الأثبج من بني هلال، الذين يقول عنهم ابن خلدون «وأما دريد فكانوا أعز الأثبج وأعلاهم كعبا بما كانت الرياسة على الأثبج كلهم عند دخولهم إلى أفريقية لحسن بن سرحان بن وبرة إحدى بطونهم.» (ابن خلدون ١٩٨٨، ج٦: ٣٢). تقول الأبيات:

تحن إلى أوطان وبرة ناقتي لكن بها جملة دريدٍ جوارها
دريدٍ سراة البدو للجود منقع كما كل أرضٍ منقع الما خيارها
وهم عرّبوا لاعراب حتى تعربت بطرق المعالي ما بنوا في قصارها
وتركوا البارمين ثنية وقد كان ما يقوى المطايا حجارها

إلا أن الأسطورة تتداخل مع التاريخ فيما ذكره ابن خلدون عن بني هلال من أخبار وأشعار في المقدمة وفي بداية الجزء السادس من تاريخه. لذلك نجده، إضافة إلى النماذج الشعرية التي سبقت الإشارة إليها، يورد في مقدمته وتاريخه نماذج أسطورية تندرج في أشعار السيرة الهلالية وتدور في فلكها. حينما نتفحص القصائد التي وردت في المقدمة مثلا نجد ابن خلدون يقدم الأولى بقوله «فمن أشعارهم على لسان الشريف بن هاشم يبكي الجازية بنت سرحان . . .» والثانية بقوله «ومن قولهم في رثاء أمير زناتة أبي سعدى . . .» والثالثة بقوله «ومن قولهم على لسان الشريف بن هاشم . . .» والرابعة بقوله «ومن قولهم في ذكر رحلتهم إلى الغرب . . .». أي أن الشريف لم يقل القصيدتين المنسوبتين إليه وإنما قالها الرواة على لسانه وأن قائليها وقائلي القصيدتين الأخريتين غير معروفين ولا يمكن تحديد الفترة التي قيلت فيها هذه القصائد. وفي استخدام ابن خلدون لعبارة «ومن قولهم على لسان» في تقديمه لبعض القصائد المنسوبة إلى شخصيات هلالية قديمة تنصل من نسبة هذه القصائد وإيحاء قوي بأنها قصائد منحولة قالها المتأخرون منهم وغالبيتها مما يدخل ضمن دائرة السيرة الهلالية. من هذه القصائد مرثية الزناتي خليفة والقصيدتان المنسوبتان إلى الشريف شكر بن هاشم. خذ مثلا هذه الأبيات من قصيدة الشريف شكر:

ونادى المنادي بالرحيل وشدوا وعرّج عاريها على مستعيرها
وشد لها الادهم ذياب بن غانم على يد مقرّب ولد ماضي أميرها
وقال لهم حسن بن سرحان غرّبوا وسوقوا النجوع ان كان انا هو غفيرها

أو هذين البيتين من مرثية الزناتي:

أيالهف كبدي على الزناتي خليفه قد كان لاعقاب الجياد سليل
قتيل فتى الهيجا ذياب بن غانم جراحه كأفواه المزاد تسيل

ومما يقوي الافتراض بأن السيرة الهلالية كانت منذ ذلك الوقت قد أخذت في التبلور قول ابن خلدون:

ولهؤلاء الهلاليين في الحكاية عن دخولهم إلى أفريقية طرق في الخبر غريبة: يزعمون أن الشريف بن هاشم كان صاحب الحجاز ويسمونه شكر بن أبي الفتوح، وأنه أصهر إلى الحسن بن سرحان في أخته الجازية فأنكحه إياها، وولدت منه ولداً اسمه محمد. وأنه حدث بينهم وبين الشريف مغاضبة وفتنة، وأجمعوا الرحلة عن نجد إلى أفريقية. وتحيلوا عليه في استرجاع هذه الجازية فطلبته في زيارة أبويها فأزارها إياهم، وخرج بها إلى حللهم فارتحلوا به وبها. وكتموا رحلتها عنه وموهوا عليه بأنهم يباكرون به للصيد والقنص ويروحون به إلى بيوتهم بعد بنائها فلم يشعر بالرحلة إلى أن فارق موضع ملكه، وصار إلى حيث لا يملك أمرها عليهم ففارقوه، فرجع إلى مكانه من مكة وبين جوانحه من حبها داء دخيل، وأنها من بعد ذلك كلفت به مثل كلفه إلى أن ماتت من حبه.

ويتناقلون من أخبارها في ذلك ما يعفي عن خبر قيس وكُثَير ويروون كثيراً من أشعارها محكمة المباني متفقة الأطراف، وفيها المطبوع والمنتحل والمصنوع، لم يفقد فيها من البلاغة شيء وإنما أخلوا فيها بالإعراب فقط، ولا مدخل له في البلاغة كما قررناه لك في الكتاب الأول من كتابنا هذا. إلا أن الخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون في روايتها ويستنكفون عنها لما فيها من خلل الإعراب، ويحسبون أن الإعراب هو أصل البلاغة وليس كذلك. وفي هذه الأشعار كثير أدخلته الصنعة وفقدت فيه صحة الرواية فلذلك لا يوثق به، ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بآياتهم ووقائعهم مع زناتة وحروبهم، وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم. لكنا لا نثق بروايتها. وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها ويتهمه، وهذا قصارى الأمر فيه. وهم متفقون على الخبر عن حال هذه الجازية والشريف خلفاً عن سلف، وجيلاً عن جيل، ويكاد القادح فيها والمستريب في أمرها أن يرمى عندهم بالجنون والخلل المفرط لتواترها بينهم. (ابن خلدون ١٩٨٨، ج٦: ٢٥-٢٦).

ولا تخلو القصائد الهلالية التي أوردها ابن خلدون من بعض الظواهر اللهجية التي كانت قد بدأت تميز لغتها عن لغة الشعر النبطي منذ ذلك الوقت. ففي البيتين التاليين من قصيدة قيلت على لسان الشريف ابن هاشم نلاحظ في البيت الأول ورود كلمة «نحنا» بدلا من «حنّا» أو ما يقابلها بلهجة أهل الجزيرة، وفي الكلمة الأخيرة من البيت تلحق الشين في نهاية الفعل المسبوق بأداة النفي «ما». وفي البيت الثاني نجد الفعل «نصدفوا»

بدلا من «نصدف»؛ إضافة إلى ظواهر لهجية أخرى مما يتميز به كلام أهل المغرب العربي ويقوم دليلا على أن هذه الأبيات منحولة على الشريف الذي يفترض أنه من الحجاز ولهجته حجازية:

تبدّى ماضي الجبّار وقال لي أَشَكِر ما نحنا عليك رضاش
نِحِن غدينا نصدفوا ما قْضي لنا كما صادفت طعم الزباد طشاش

ولنا أن نتساءل عن حقيقة العلاقة اللغوية والأدبية بين هذه المقطوعات الهلالية وبين بدايات الشعر النبطي، إذ ليس هنالك ما يشير ولو من بعيد إلى أن عرب الجزيرة على علم بها ولا نعلم أنه كانت هناك وسائل اتصال مباشر بين بدو المشرق وبدو المغرب وما ينتج عن ذلك من عمليات التثاقف والاحتكاك. لكن هذا لا ينفي وجود الشبه بين المقطوعات الشعرية الهلالية التي أوردها ابن خلدون وبين شعر بادية الجزيرة العربية في ذلك الوقت. لو تمعنا في أقدم النماذج التي وصلتنا من الشعر النبطي وقارناها بنماذج الشعر الهلالي التي أوردها ابن خلدون لوجدنا تشابها ملحوظا في اللغة ونظام القوافي والعروض ولوجدنا أنها كلها قيلت على البحر المشتق من الطويل والذي يسميه أهل نجد الهلالي، وهذه التسمية يطلقونها على كل ما هو قديم موغل في القدم (كانت نظرة أهل نجد المتأخرين إلى بني هلال لا تختلف عن نظرة العرب القدماء إلى قوم عاد).

إلا أن هذا التشابه في نظري لا يعني أن الشعر الهلالي الذي ورد في مقدمة ابن خلدون هو الأصل الذي نشأ منه الشعر النبطي لكنه يعني أنهما فرعان انحدرا من أصل واحد هو الشعر العربي الفصيح، وأنهما سارا في بداية نشأتهما وتطورهما في طريقين متقاربين متوازيين ثم بدأ يتباعدان شيئا فشيئا من حيث اللغة والشكل والوظائف والمضامين حتى افترقا ليتحول أحدهما فيما بعد إلى ما نسميه الآن الشعر النبطي. أما الفرع الآخر الذي ترعرع بين بني هلال في المغرب العربي فإنه انقسم بدوره إلى شعر قصصي يمثل بدايات السيرة الهلالية، وشعر ذاتي تاريخي يمثل البذرة التي نبت منها شعر الملحون الذي ابتعدت لغته كثيرا عن لغة الشعر النبطي.

ومع التسليم بهذه النتيجة فإنه مازال بإمكاننا الاستفادة من تفحص الشعر الهلالي القديم الذي أورده ابن خلدون في تلمس بدايات الشعر النبطي والأجواء اللغوية والاجتماعية التي نشأ فيها، وذلك لقربهما من بعضهما في بداية نشأتهما ولكونهما انحدرا من أصل واحد. ولا أدل على ذلك من أن ابن خلدون يدمج قصيدة قالتها بدوية من بادية الشام

مع قصائد بدو شمال أفريقيا، وكأن هذه القصائد برمتها تنتمي إلى إرث شعري واحد. ويسوق ابن خلدون ملاحظات شكلية تنطبق على الشعر الهلالي بنفس المصداقية التي تنطبق بها على الشعر النبطي، مثل قوله «فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأغاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم. وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون.» (ابن خلدون ١٩٨٨، ج١: ٨٠٥-٨٠٦). والقصائد التي جاءت في المقدمة تؤكد على دقة ملاحظات ابن خلدون وعلى مدى التشابه بين الأشعار الهلالية والأشعار النبطية القديمة، مع فوارق في اللهجة لا تخفى على عين البصير باللغة. ومن أوجه الشبه البارزة بين شعر بني هلال في المغرب والنماذج القديمة من الشعر النبطي أن ذكر الديار مربوط بذكر الخيل والنعم والحسناوات اللاتي كان الشاعر يسامرهن ويتلهى بمداعبتهن، كما في قصيدة علي بن عمر بن إبراهيم من رؤساء بني عامر وقصيدة سلطان بن مظفر بن يحيى من الزواودة. وهذا موضوع تقليدي يكثر الشعراء النبطيون من طرقه، ونجد الكثير من الأمثلة عليه فيما سنقدمه من مختارات شعرية كما في الأبيات ١٧-٤٦ من قصيدة عرار بن شهوان آل ضيغم وكما في الأبيات ٢٢-٢٤ من دالية أبي حمزة العامري وكما في الأبيات ٩-١٢ من القصيدة الذهبية التي قالها عامر السمين في مدح شريف مكة بركات بن محمد وكما في الأبيات ٨-١٢ من لامية الشعيبي في مدح الشريف بركات المشعشعي.

ولكن ماذا عن الأشعار التي تدخل في فلك السيرة وما علاقتها بالمقطعات التي كانت متدوالة تداولا شفهيا بين أبناء الجزيرة العربية حتى عهد قريب وينسبونها إلى بني هلال؟ ما هي علاقة هذه المقطعات الشفهية بما أورده ابن خلدون وهل يمكن الاعتماد عليها كنماذج تمثل بدايات الشعر النبطي ومرحلة الانتقال من النسق الفصيح إلى النسق العامي في لغة شعر البادية في الجزيرة العربية؟

ما أورده ابن خلدون من أشعار السيرة الهلالية يشكل النواة التي نشأت منها هذه الملحمة العربية التي أصبحت رواياتها فيما بعد تتداخل على امتداد الوطن العربي كله، بما ذلك الجزيرة العربية. قصة الجازية مع الشريف شكر التي ذكرها ابن خلدون في

الجزء السادس من تاريخه لا تزال قيد التداول الشفهي عندنا في نجد. الزناتي خليفة وذياب بن غانم وحسن بن سرحان لا تزال أسماءهم تتردد على ألسنة الرواة في مختلف أنحاء الجزيرة العربية. ومع ذلك تبقى القصائد الهلالية المتداولة في نجد شيئاً مختلفاً عما سجله ابن خلدون، مثلما تختلف روايات السيرة الهلالية من بلد عربي إلى بلد عربي آخر. والمقطعات الهلالية المتداولة في نجد، شأنها شأن ما شاكلها من أشعار الضياغم وما يدور في فلكها من صنف أشعار شايع الأمسح وغيره، لا يصح الاعتماد عليها في تأريخ بدايات الشعر النبطي وتتبع مراحل نموه وتطوره وذلك نظرا لطبيعتها الشفهية والأسطورية. الأشعار التي وصلتنا عن طريق الرواية الشفهية فقط لا يمكن الاعتماد عليها كأساس قوي لتأريخ الشعر النبطي، خصوصا إذا كانت هذه الأشعار مما تبدو عليه المسحة الأسطورية أو الروائية. وكلما كان الشاعر موغلا في القدم وكلما أحكم النسج الأسطوري حول شخصيته ازداد شكنا في صحة نسبة أشعاره وفي قيمتها كمصدر للبحث في نشأة الشعر النبطي ومراحل تطوره اللغوية والفنية. وحتى لو سلمنا بصحة نسبة قصيدة قديمة إلى قائلها المزعوم فإن عدم ثباتها لفظيا عن طريق الرواية الشفهية يجعلنا في شك وحذر من الاعتماد عليها كنموذج يمثل الواقع اللغوي والأدبي للعصر الذي يفترض أنها قيلت فيه. ومما يقوي شكنا في نسبة بعض الأشعار النبطية إلى القدماء أننا نجد أبياتا تروى باللهجة العامية وتنسب إلى شخصيات من العصر الجاهلي مثل كليب والمهلهل وجساس وعنترة! وقد جمعت بنفسي الكثير من هذه الأشعار من الراوية سعود بن جلعود من أهالي سميرا قرب حايل.

هذا يقودنا إلى مسألة مهمة تتعلق بقيمة النص كشاهد تاريخي ولغوي على عصره. إذا كان قائل القصيدة شخصاً حقيقياً له وجود تاريخي ووصلتنا القصيدة عن طريق الثبت الكتابي أو التسجيل الصوتي بالشكل اللغوي الذي قيلت فيه أصلا، دون أن ينالها أي تحريف أو تغيير، فإنه لا أحد يشك في قيمتها كشاهد لغوي وتاريخي. أما إذا لم تدون القصيدة واعتمدت في وجودها وتداولها على الرواية الشفهية فإنها تصبح عرضة للتحريف والتغيير اللغوي وتعدد الروايات والاختلاف في نسبتها إلى قائلها. وكلما ابتعدت القصيدة زمنيا ومكانيا عن قائلها الأصلي تراكمت التغيرات التي تطرأ عليها وأصبح تحقيقها وردها إلى أصلها أمرا متعذرا، مما يضع ظلالا من الشك حول قيمتها كشاهد لغوي وتاريخي.

أما إذا نحل الرواة، لسبب أو لآخر، قصيدة ونسبوها لشخصية حقيقية لها وجود تاريخي فإنه لا يعتد بهذه القصيدة من الناحية التاريخية، إلا إذا أردنا أن نبحث في البواعث والظروف السياسية والاجتماعية الداعية إلى نحلها. كما أن القصيدة المنحولة لا تصلح كشاهد لغوي على لغة عصر قائلها المزعوم لكنها قد تصح كشاهد على لغة العصر الذي نحلت فيه، والتي قد تختلف عن لغة القائل المزعوم بحسب قربها أو بعدها زمانيا عن عصره. أي أن النحل يفقد النص قيمته التاريخية لكنه مع ذلك يبقى شاهدا يمثل الواقع اللغوي والأدبي للعصر الذي نحل فيه. فالقصائد التي يرويها العامة عندنا في نجد حتى عهد قريب وينسبونها إلى المهلهل وكليب وجساس لا علاقة لها إطلاقا من الناحية اللغوية (ولا التاريخية) بهذه الشخصيات وإنما هي نماذج من لغة العصر الذي نحلت فيه، أو بالأحرى لغة العصر الذي تم فيه تدوينها أو تسجيلها صوتيا، والتي قد تختلف عن اللغة التي تم فيها الانتحال أصلا. فمن الممكن مثلا أن تعيش شخصية في الجاهلية مثل عنترة بن شداد وبعد تفشي العاميات يقول الرواة والقصاصون الشعبيون أشعارا على لسان عنترة باللهجة العامية ويتداول الناس هذه الأشعار ويتوارثونها عن طريق الرواية الشفهية لعدة قرون وتتعرض جراء ذلك لتغيرات لغوية تنأى بها عن الأصل المنحول، ثم يأتي بعد ذلك من يدونها برواية العصر الذي تم فيه التدوين ولغته التي تختلف عن لغة الرواة الأقدمين الذين نحلوها أصلا والتي هي بدورها تختلف عن اللغة التي كان يتكلم بها قائلها المزعوم عنترة وينظم بها شعره.

هذه الاحترازات العلمية تفرض علينا التريث في قبول ما ينشر في بعض المصادر المطبوعة على أنه نماذج من الشعر النبطي القديم، خصوصا في حالة عدم نص الجامع على مصادره التي استقى منها هذه النماذج، أو في حالة كون هذه المصادر مصادر شفهية أو حتى مصادر خطية نسخت في أوقات متأخرة. ومن الأمثلة على ذلك الأبيات التي نسبها الفرج لعليا حبيبة أبي زيد الهلالي من قصيدة أرسلتها إليه وهو في المغرب يقاتل البربر وأولها: ياركب ياللي من عقيلٍ تقلّلَوا// على ضمّر شروى الحنايا نحايل. لا يمكن الاعتماد على هذه الأبيات التي وصلتنا عن طريق الرواية الشفهية وقبولها على أنها قيلت في القرن السابع الهجري كما يقول الفرج (١٩٧١، ج١: ح-ط). ولنفس السبب لا يصح الاعتماد على الأبيات المنسوبة لأم عرار التي أوردها ابن عقيل ليمثل بها على شعر نهاية القرن الثامن وبداية التاسع. وهذا ينطبق على جميع الأشعار المنسوبة

إلى الضياغم والتي تتخلل أسطورة رحيلهم إلى شمال نجد. (ابن عقيل ١٤٠٢: ٦١-٦٥). وفي كتابه القيم عن الخلاوي نجد أن ابن خميس يغفل الحديث عن تسلسل المصادر التي استقى منها شعر الخلاوي، بعبارة أخرى الإسناد، سواء أكانت هذه المصادر تحريرية أم شفهية، منذ وقت الخلاوي حتى يومنا هذا. ويدور نقاش ممتع بينه وبين ابن عقيل عن ممدوح الخلاوي منيع ابن سالم، من هو ومتى عاش، أي أن حتى عصر الخلاوي لم يتحدد بعد. ومثال آخر القصيدة التي نسبها عبدالله بن خالد الحاتم في الجزء الأول من مجموعه خيار ما يلتقط من الشعر النبط لعرار ابن شهوان آل ضيغم الذي قال عنه إنه من الشعراء الأقدمين عاش سنة ٨٥٠. لكننا في ريبة تاريخية من أمر عرار بن شهوان هذا؛ وهل استقى الحاتم القصيدة من مصدر خطي وما هو تاريخ هذا المصدر؟ لعلها استنسخت من مصادر شفهية في وقت متأخر مثل ما استنسخت قصائد بني هلال والقصائد الأخرى المتعلقة برحلة الضياغم الأسطورية. ولا أدري على ماذا اعتمد الحاتم في تحديده لزمن هذه القصيدة حيث أن المصادر الخطية التي اطلعت عليها تورد القصيدة دون أن تحدد لها تاريخا. وسوف يتضح لنا في مواقع عدة من فصول كتابنا هذا أن الحاتم قليل التثبت وكثير الأخطاء. ولعل ابن عقيل (١٤٠٢: ٦١-٦٥) تسرع في قبوله لهذه القصيدة واعتبارها نموذجا للشعر النبطي في القرن التاسع الهجري إذ لا يقوم على ذلك دليل يطمئن له الخاطر. ومما يزيد في شكنا في قصيدة عرار أن لغتها أقرب إلى عاميتنا وإلى لغة الشعر النبطي في عصوره المتأخرة منها إلى لغة شعراء النبط الأقدمين من أمثال أبي حمزة العامري وشعراء الدولة الجبرية. وها نحن نورد القصيدة هنا ليقارن القارئ لغتها بلغة أشعار القرن الثامن والقرن التاسع الهجريين والتي سنوردها في الفصول اللاحقة:

٠١) يقول عرارٍ قول من ضل موقِف — على الدار يذري بالدموع الذرايف
٠٢) قليل الجدا من دمنةٍ دمّها الهوى — مزاعيج هوج الذاريات العواصف
٠٣) لكني بها ما ريت خيمٍ ظلايل — وامـوال من مال العوادي قرايف
٠٤) وبيضٍ عماهيجٍ يشادن للمها — لطاف المثاني محصناتٍ عفايف
٠٥) ترى ان كان يالعين البكا يدني العما — فانا منك ياعيني مريبٍ وخايف
٠٦) وقامت تهل الدمع من شد ما بها — ولا نيب من ذولا وذولاك شايف
٠٧) فلا واعلا لولا التمني سماجه — أوقّف بنجدٍ آمنٍ غير خايف

٠٨) والقى عميرٍ بالعذيبات موقف على شلشلٍ يسقي جمالٍ شرايف
٠٩) شرايف بدوٍ ليس من حضر قريه ولا من دعابيل الحجاز الزعايف
١٠) شرايف ما يركبهن إلا غشمشم ولا يفترشن الا جديد القطايف
١١) فقلت ضحى عزل النيا شط لامنا وشفت الذي قلبي للقياه عايف
١٢) سرى بارقٍ يابو ربيعه لكنه من البعد الى اوما بالثياب الرهايف
١٣) أقمنا زمانٍ ثم جانا زفيره يدربى الحصا من عاليات المشارف
١٤) يجذّب عشاش الطير من مستكنّها يفرّق طربات الحمام الولايف
١٥) وجانا يدربي القصر قصر آل ضيغم وإلى القصر عن ضلعين حدبا شظايف
١٦) لعل وادى العرض ما دبّه الحيا ولا بِنّيَت فيه الخيام النوايف
١٧) غدى بالصبايا والسبايا وبالقنا وبالدرق الحوتي وزين الكلايف
١٨) غدى ببناتٍ من بْنِي آل ضيغم رهاف الثنايا مدمجات العكايف
١٩) ثريّا وريّا والرباب وزينب يِقِدن الهوى قود المهار العسايف
٢٠) ومنهن سعدى أسعد الله نوّها مساعفه لي بالهوى ما تخالف
٢١) ومنهن بنت الدوسري قصيرنا لكن على أنيابها الشب دايف
٢٢) ومنهن بنتٍ للشريف محمد دعت محمل الجمّال غادٍ سعايف
٢٣) تنوض إلى ناضت بردفٍ لكنه نقاً من طعوس الشعثميات نايف
٢٤) ومنهن بنت القوس بيضا عفيفه لجا حبها بين الضلوع النحايف
٢٥) ومنهن ميٍّ مير ميٍّ صغيره تبوج الهوى بوج الثياب الرهايف
٢٦) ومنهن بنت العم مهضومة الحشا تاخذ عزا مشتاقها بالطرايف
٢٧) صفا حبهن لي بالهوى مثلما صفا زلال ببطحاً عقب لتح المغارف
٢٨) عْذاب النبا نجلات الاعيان يقدنني كما قيد للمسنى بكارٍ عسايف
٢٩) إلى ما سرى القنّاص من عقب هجعه لقاهنّ صرعى في مثاني القطايف
٣٠) لهن على اللبات جعدٍ لكنها عثاكيل تسقى من براكٍ ذرايف
٣١) إلى هبت الريح الضعيفه تلبّدت ثياب الرهيمي للوسوط الرهايف
٣٢) لها اقدام رضعانٍ وأعناق جفّل واوراك مبرورات قبٍّ عسايف
٣٣) كبار جما الاوراك إن مالن ميله على محملٍ تغدي لياحه شظايف
٣٤) يصيدن ولا ينصادن الا لنادر يداري على غرّاتهن الكشايف

٣٥) يعفن الذي عودٍ وقد ترّك الصبا ويحيين بالهيجا رجالٍ غطارف
٣٦) فياطول ما جاذبن ملوى عمامتي وياطول ما جاذبتهن الغدايف
٣٧) وياطول ما علّلْتهن وقلن لي جدا السد منا آمنٍ غير خايف
٣٨) جليلات ألفاظ الكلام وجلبن خدودٍ أسيلاتٍ كما ورد قاطف
٣٩) لهن عبير الزعفران ولو غلى نقوطٍ لِشَمّ آنافهن الرهايف
٤٠) إلى ما أردن ان يعِلْقن لاعج الهوى طلين بقان الزعفران المراشف
٤١) ندز المطايا صوبهن تِعمّد ولو هن من الاوزا رذايا تلايف
٤٢) ونيات بتنهيض الصدور تواعب من السير طيحا ناحلاتٍ عجايف
٤٣) إلى ملعبٍ منهن دانى لملعب وسن التداني بينهن النصايف
٤٤) تشادي اهتزاز الغصن وان هبت الصبا إلى ملعب الماروث مني ترايف
٤٥) فذا مربط الدهما وذا مركز القنا وذا ملعب الخفرات سود الغدايف
٤٦) وملاعبٍ بالدمث بالرمث بالغضا ردايف بالارطا بالانقا بالزبار الردايف
٤٧) فمن عاش بالدنيا بحالٍ صفت له يشوف بها مثل الذي كنت شايف
٤٨) غدى صرفها بجموع قومي وخلتي وشبّان قومٍ مِشِرْعين المضايف
٤٩) نسدي ونمضي من غوالي فيودهم سوى حاظرينٍ او سوى بالتنايف
٥٠) نطا كفّة الحبال عمدٍ وغيرنا من الناس حذرٍ ما يطا بالكفايف
٥١) فالى ساعفت وانا وسيفي وسابحي ومظوفرٍ عود البلنزا شظايف
٥٢) عادت يميني بالسخا ما تردّني ولا قدّمتٍ للوارث إلا الحسايف
٥٣) ولا من تلا آيات القرآن وفضلها مع العلم تقراه الثقات العوارف
٥٤) بأعلق مما علّقن من ضعاين وزلفٍ ونيّات البوادي زوالف
٥٥) فكفٍّ كفى الدنيا إلى عاد خيرها فراش الثرا من عقب لين اللحايف

أبو حمزة العامري

لا نجد في قصائد أبي حمزة ما يشير بشكل قاطع وواضح إلى زمنه أو يحدد موطنه أو قبيلته أو يلقي أي ضوء على شخصيته التي نجهلها تماما. إلا أنه يرد في أحد قصائده اسم كبش بن منصور بن جماز الذي يحتمل أنه كبيش بن منصور بن جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا الشريف الحسيني الذي ولي إمارة المدينة المنورة سنة ٧٢٥هـ حتى مقتله

سنة ٧٢٨هـ، أي قبل ولادة ابـن خلدون. (بدر ١٤١٤، ج٢: ٢٤٧-٢٥٧، السخاوي ١٤٠٠، ج٣: ٤٢٦-٤٢٥، العسقلاني د. ت. ج٢: ٢٢٣-٢٢٤، ج٣: ٢٦٢).

ولا تورد المصادر المطـبوعة والمخطوطة المتداولة إلا قـصيدتين من قصائد أبي حمزة هما الهـمزية وهي على بحر الرجز والـلامية وهي على بحر البسـيط. إلا أنني وجدت له في مخطوطة وجدتها في حوزة الزميل عبدالرحمن بن عبدالمحسن الذكير، إضافة إلى القصيدتين المذكورتين، خمس قصائد إضافية لم أعثر على أي ذكر لها في أي مكان آخر، وكلها على بحر الرجز. وقد أفدت من مخطوطة الذكير في التعرف على اسم أبي حمزة الذي تـقول المخطوطة إنه شفيـع، وهذا أيضا هو اسمه عند سلـيمان الدخيل الذي لا يورد له إلا الهمزية. والقصائد التي وجدتها في مخطوطة الذكير بالغة الأهمية، خصوصا وأن واحدة منها قيلت في مدح الشريف كبش بن منصور بن جماز، كما قلنا. ورغم البحث الجاد لم أعثر في المصادر المتاحة على أي ذكر لأي شخص يحمل الاسم الثلاثي كبش بن منصور بن جماز عدا الشريف المذكور. وكما أشرنا في معرض الحديث عن مسمى الشعر النبطي، ترد في قصيدة أخرى من قصائد شفيع أبي حمزة التي لم يسبق نشرها والتي يتغزل فيها بمعشوقته أميم كلـمة نبطي في البيت قبل الأخير للإشارة لهذا الشعر الذي نتحدث عنه. إذا صحت هذه القرائن التاريخية وصح أن كبيش بن منصور بن جماز، شريف المدينة الذي قتل عام ٧٢٨هـ، أي قبل ولادة ابن خلدون، هو الذي عاصره أبو حمزة العامري ومدحه فإن هذا يعني أن الشعر النبطي كان شائعا منذ القرن السابع، وربما قبل ذلك، وأن كلمة نبطي كاسم يطلق على هذا الشعر كانت مستخدمة منذ ذلك الوقت. وربما يؤيد هذا ما نلاحظه على القصائد التي تنسب لأبي حمزة من مسحة الفصاحة التي تفوق ما نجده في قصائد شعراء الدولة الجـبرية، مما يعنـي قرب عهده من عصر الفصـاحة، كما أن أشعاره كلهـا على بحري البسيط والرجز، وهما من البحور المشهورة في الشـعر الفصيح. ومن البديهي أن قصائد أبي حمزة، وكذلـك القصائد التـي أوردها ابن خلدون، قيلـت وفق نماذج أخرى سابـقة ترسخت فيها العامية. من هذه المـعطيات نستطيع أن ندفع ببدايات الشعر النبطي إلى الوراء حتى القرن السابع أو ربما قـبل ذلك، أي إلى زمن العيونيين، إن لم يكن زمن هجرة الهلاليـين من نجد. وسبق أن ألمحنا إلـى أن نسبة ابن خلدون هذا الشعر إلى القيسيين ربما قام دليلا على وجوده منذ زمن العيونيين الذين ينتسبون إلى القيسية.

ويوحي مضمون بعض القصائد التي قالها أبو حمزة مفتخرا بنفسه ومعتدا بشجاعته واستقامة خلقه أنــه كان مقدما في قومه وفارسا من فرسانهم الــمعدودين، إن لم يكن زعيما من زعمائهم، وهذا ما تقوله عنه الرواية الشعبية. وتنسب الرواية الشعبية أبا حمزة إلى قبيلة سبيع لإلحاق نسبة العامري إلى اسمه. لكن قبيلة ســبيع تكوين حديث نسبيا وربما أنها لم تظهر على مسرح التاريخ وتشتهر إلا بعد عصر أبي حمزة. ومعروف أن قبائل بني عامر ابن صعصعة كــانت لهم الهيمنة على الجزيرة العربية منذ قرون طويلة تعود إلى أيام بني هلال ثــم قيام دولة الجبريين في الأحساء وحتى إلــى ما بعد ذلك. وهناك الكثير من الأعلام في تاريخنا القديم الذين يلحق بأسمائهم نسبة العامري وهناك الكثير من الفروع القبلية التي تلتحق بهذا الأصل وتنتسب إليه ولا يصح نسبتها جميعــا إلى سبيع. هل يجوز لنا مثلا نسبة ليلى العامرية، معشوقة قيس، إلى سبيع؟ وأنا هنا لا أنفي نسبة أبي حمزة إلى سبيع لكنني فقط أردت التنبيه إلى أن إلحاق نسبة العامري إلى اسمه ليست سببا كافيا ولا تصح أساسا لإدخاله في قبيلة سبيع.

ويتناقل الرواة عن أبي حمزة حكاية هي ألصق بأحاديث السمر وعالم الأساطير منها بالتاريخ. تقول الحكاية إن أبا حمزة لما تزوج عشيقته أميمة شغل بها عن أمور القبيلة وقيادة رجالها في الغزوات. فذهبوا إلى والدته لتبحث لهم عن مخرج. فما كان منها إلا أن رمت زوجة إبنها بالبهتان واتهمتها بالباطل في عرضها لتصرفه عنها. فلما سمع أبو حمزة التهمة من والدته نكص إلى زوجته وطلب منها الاستعداد للرحيل والذهاب لزيارة أهلها. فأردفها معه على جمله شمردل وهام في البراري أياما وليــالي متظاهرا بالبحث عن قبيلة الزوجة. وكان في حيرة من أمره فحبه لها يمنعه من قتلها لكنه لا يستطيع هضم ما سمعه مــن أمه عن زوجته. ولما تيــقن أن التعب أعياها وأنهــا لو نامت فلن تفيــق بسهولة، أناخ الجمل وفرش لها لتستريح. ولكنها من فزعها في تلك القفار الموحشة لم تستطع النوم حتى وضع أبو حمزة «طرف ردنه»، أي نهاية كمه الطويــل، تحت رأسها ليطمئنها ويشعرها بالأمان. ولما غطت في نومها العميق سل أبو حمزة خنــجره وقص ردن ثوبه فخلص نفسه وانسل عائدا إلى أهله وتركها لوحدها. ولما رجع إلى الحي حزن على أميمة ودهمته الأمراض وساءت حاله. ومضى عليه عام كامل وهو على هذه الحال وأحس بنو عمه بفقده أكثر من قبل. فذهبوا مرة أخرى لأمه ليتدبروا معها هذا الوضع. وهنا صاحت الأم مرة ثانية ولما تجمع الناس حولها قالت: أقسم لكم بالله العظيم أنه

لم يطأ الأرض أطهر من زوجة ابني وأنها أطهر من حمام الحرم لكنني ابتليتها واتهمتها لأصرفه عنها نزولا عند رغبتكم وحتى يتركها وينصرف لكم. ولما سمع أبو حمزة كلام أمه قام وطلب شربة ماء وسأل عن جمله فأحضروه له وامتطاه وذهب إلى المكان الذي ترك فيه أميمة ليبحث عنها عله يجدها أو يجد عظامهـا فيدفنها. ولما لم يجد لها أثرا هناك تزيا بزي الخلاوي وتظاهر بأنه من الخلاوية الذين يصيدون الظباء ويجرّون الربابة ويخدمون في بيوت شيوخ العرب. وصار يتنقل على هذه الهيئة من حي إلى حي عله يجد أميمة أو يعثر لها على خبر.

أما أميمة فإنه لما أضحى الضحى واحتمت الشمس صحت من نومها ولما لم تجد زوجها ورأت طرف ردنـه المقطوع أحست بالـريبة. ونهضت ومشت مـتتبعة مجاري السيول حتى وصلت إلى شجرة عظيمة تحتها غدير ماء زلال وفي فرعها عش نسر كبير. فأقامت على الشجرة تنام في عش النسر وتشرب من ماء الغدير وتأكل من كلأ الأرض. أثناء ذلك مر بالمكان قطن بن قطن في أحد مغازيه. ولما أناخ راحلته رأى صورة وجه الفتاة في الغدير، وكانت في غاية الحسن والجـمال. وحدس قطن بذكاءه المعهود أن وراء الأمر سرا، لكنه أيضا بشهامتـه المعهودة وأريحيته التي يضرب بها المثل أراد أن يستر على الفتاة ويحاول أن يعرف سرها دون أن يفتضح أمرها أمام قومه. لذلك نهض مسرعا وقال لقومه: هيا بنا فلنواصل المسير، لا مقام لنا هنا. ولما قطعوا مسافة طويلة تظاهر الأمير قطن أمام قومه أنه نسي حاجة له عند الغدير وأنه مضطر للعودة، لكنه أصر على العودة وحده وأنه لا داعي أن يعود معه أحد وطلب من قومه مواصلة المسير. ولما وصل المكان صاح: يامن على الشجرة، إن كنت إنسيا فلتنزل ولك مني أغلظ الأيمان أنني لن أمسك بسوء وإن كنت شيـطانا فإنني أعوذ بالله منك ومن شرك. فطلبت منه المرأة أن يعطيها الأمان وأن يضعها في وجهه حتى تنزل. ففعل ونزلت. ولما سألها عن شأنها قالت: لا تلح علي بالسؤال وتسبب لي الإحراج فقد أعطيتني الأمان لكن كل ما أطلبه منك أن توصلني إلى أقرب حي من أحياء العرب. فاصطحبها قطن معه إلى أهله وأقامت معهم مكرمة معززة. وفي هذه الجزئية تتقاطع حكاية أميمة مع حكاية بنت ابن غافل الزعبية كما توردها في قصيدتها التي وجهتها إلى إبنها سبّاع وتقول فيها:

انـا فـتـاة الـحـي بـنـت ابـن غـافـل وكـم مـن فـتـاةٍ غـرّ فـيـهـا قـعـودهـا

شـرشـوح ذودٍ ضـاربٍ لـه خـريـمـه مـا ودّك يـشـوفـه بـعـيـنـه حـسـودهـا

حوّلت مـن نضوي تعـلّيت سرحـه   حـطّيـت لي عـشٍّ بعـالي فـنودهـا
وجـانـي ركـيـبٍ نـوّخـوا فـي ذراهـا   وشـافـن عـقـيـد الـقوم زيـزوم قـودهـا
قـال انـزلـي يـابـنـت وانـتـي بـوجـهـي   ولا جـيـتـه الا واثـقـه مـن عـهـودهـا
أمـرٍ كـتـبـه الـلـه صـار وتـكـوّن   وسـبّب عـلَـيّ مـن الاعادي قـرودهـا

وفي تطوافه بين الأحياء صدف أن حط أبو حمزة في هذا الحي الذي توجد فيه أميمة ونزل ضيفا عند قطن نفسه. وكانت سمعة أبي حمزة وشهرته كفارس وشاعر معروفة عند كل الناس بما فيهم قطن بن قطن الذي يسمع به لكنه لا يعرفه شخصيا. ولما عرف قطن أن هذا الخلاوي الذي استضافه راوية وعازف ربابة سأله إذا ما كان يعرف شيئا من قصائد أبي حمزة وطلب منه أن يغنيها له. ولما سمعت أميمة صوت أبي حمزة يغني على الربابة، وكانت تجلس غير بعيد منه، عرفته وذرفت دمعتها. ولما انتهى من الغناء قال لقطن على مسمع من أميمة، التي تأكد لديه الآن أنها سمعته وتعرفت على صوته وفهمت مغزى أشعاره: لقد أنخت بعيري الأجرب هناك (مشيرا بيده إلى حيث أناخ الجمل لتعرف أميمة مكانه) أرجو أن لا تقترب إبلكم منه حتى لا يعديها. وفهمت أميمة الرمز ولما أظلم الليل ذهبت لتجد أبا حمزة في انتظارها حسب الخطة وركبا الجمل وعادا إلى ديارهما.

ومن المؤسف أن قصائد أبي حمزة التي ترد في مخطوطة الذكير مطموسة في بعض الأجزاء مما يستحيل معه قراءة المطموس وفهم معناه. وحتى في الأجزاء التي يمكن قراءتها نجد أنفسنا أحيانا أمام عدم وضوح في المعنى وخلل في نسق الأبيات وترتيبها. ولو وجدت هذه القصائد في مخطوطات أخرى إضافة إلى مخطوطة الذكير فلربما استطعنا عن طريق التحقيق والتدقيق والمقارنة والتمحيص الخروج بقراءة أفضل وفهم أدق للقصائد. وسوف نورد هذه القصائد على علاتها حرصا منا على استقصاء مجمل إنتاج أبي حمزة الشعري وتقديمه للباحثين، على أمل أن تكون هذه مجرد محاولة أولى تتلوها محاولات أخرى من قبل المهتمين بجمع وتحقيق شعر أبي حمزة وغيره من رواد الشعر النبطي.

تأتي أهمية قصائد أبي حمزة في كونها أقدم ما وصلنا من نماذج شعرية يمكن إدراجها تحت مسمى الشعر النبطي، وهي لذلك تمثل بدايات هذا الموروث الشعري، إن لم تكن تمثل مرحلة الانتقال اللغوي من الفصحى إلى العامية. وسيتبين لنا من خلال المقارنات الأدبية التي سنوردها أدناه أن هذه القصائد ترتبط ارتباطا عضويا قويا مع شعر

الحقب الفصيحة من حيث المضامين، إلا أننا مع ذلك لا يمكننا اعتبارها من الناحية اللغوية إلا أنها قصائد نبطية. فنحن لا نجدها إلا في مخطوطات الشعر النبطي التي لا تحتوي عادة على أي شعر فصيح. وأبو حمزة نفسه في أحد قصائده يصف القصيدة بأنها قصيدة نبطية. وحينما نسلط مجهر التحليل اللغوي على هذه القصائد نجدها تحتل موقعا وسطا ما بين الفصحى والعامية في صيغها الصرفية وتراكيبها الاشتقاقية وقواعدها النحوية. صحيح أننا نجد في شعره بعض الكلمات التي يلزم نطقها نطقا فصيحا ليستقيم الوزن العروضي للبيت، وقد يمتد ذلك ليشمل أكثر من كلمة، وربما امتد ليشمل المصراع كله، بل حتى البيت بكامله؛ لكن هذا ينطبق أيضا على النطق العامي الذي بدونه يختل الوزن في الأبيات الأخرى. ومن الواضح أن التشكيل في شعر أبي حمزة وظيفته إيقاعية وليست نحوية. الوظائف النحوية التي كانت لحركات الإعراب تلاشت ولم يبق إلا الوظيفة الإيقاعية. أي أننا نضيف التشكيل إلى بعض الكلمات وننطقها نطقا متفاصحا لإقامة الوزن لا غير، دون تحميل هذه الحركات أي دلالة نحوية. الحركة هنا ليست حركة إعراب وإنما هي مجرد حركة مقابل ساكن، أي حركة تنتقل خلالها عضلات النطق من ساكن إلى ساكن. وليس النطق والتشكيل هما المقياس الوحيد الذي نحكم به على فصاحة القصيدة أو عاميتها. حينما ندقق في القاموس اللغوي لقصائد أبي حمزة نجد أنها مثلما تحتوي على مفردات فصيحة اندثرت واختفت من الشعر النبطي في حقبه المتأخرة فإنها تحتوي على مفردات عامية لا وجود لها في معاجم الفصحى.

ونبدأ بإيراد قصيدة أبي حمزة التي مدح فيها الشريف كبش بن منصور بن جماز والتي يبلغ مجموع أبياتها ستة وستين بيتا. تبدأ القصيدة بالحديث عن طيف الخيال. وكعادة شعراء النبط القدامى وتفننهم في حسن التخلص من المقدمات التقليدية إلى غرض القصيدة الأصلي، والذي غالبا ما يكون المدح، يدور حوار بين أبي حمزة وزوجته التي تبدي قلقها عليه لعلمها بالأهوال التي سيخوضها والمخاطر التي سيتعرض لها على أمل عطاء ربما يجيء وربما لا يجيء. ويتخذ أبو حمزة من ذلك مدخلا لمدح الشريف وذلك بطمأنة زوجته والتأكيد لها بأن الممدوح في القصيدة شخص لا يجارى في كرمه وشهامته وأريحيته وفروسيته. هذا المشهد الوداعي بين الشاعر وزوجته سيمر بنا مرة أخرى في قصيدة العليمي النونية بوصل الألف التي يمدح بها قطن بن قطن. كما يذكرنا المشهد بقصيدة أبي نواس التي قالها في مدح الخصيب أمير مصر ومنها:

تقول التي من بيتها خف محملي عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للفتى متطلب بلى، إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر جرت فجرى في جريهن عبير
ذريني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير

ويسارع أبو حمزة إلى تبرئة نفسه من تهمة الاستجداء والوفود على الملوك لنيل عطائهم. وتصدر هذه التبرئة على لسان زوجته التي تخاطبه قائلة «لا أنت زوّار ولا متحيّل» فيجيبها مؤكدا أنه ذاهب إلى الشريف لأن الشريف كتب له يتودده ويطلب منه الوفود إليه. نعم يتعفف أبو حمزة عن الاستجداء لكنه لا يجد غضاضة في شرح حاجته وقلة ذات يده كما في البيت الواحد والأربعين. فهو لا يجد ما يسد به رمقه إلا الماء بينما غيره يملك أذواد الإبل وينعم بألبان النوق الأبكار. هذا الشرح لا يرد على لسانه هو، فشيمته وعزة نفسه تأبيان ذلك، لكنه يضعه على لسان زوجته، ومن عادة النساء التشكي وكشف العورات التي يحرص الرجال العقلاء على سترها والصبر عليها. ثم يجتهد أبو حمزة في تطييب خاطر أميمة ويمنيها بمقابلته للشريف. ويقول عن نفسه إن المال لا يقر في يده لكرمه وبذله للمعروف، مثله مثل الجبل الأشم الذي لا يقر فيه ماء المطر بل يسيل منه ليستقر في مهابط الأرض مثلما يستقر المال في أيدي البخلاء. وهذا المعنى أخذه أبو حمزة من قول أبي تمام:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

ويؤكد أبو حمزة في قصيدته أنه ليس معدماً وفقره ليس مدقعاً وإن كانت كفه اليوم فارغة فسيأتي اليوم الذي تمتلئ فيه مثلما يمتلئ الدلو بالماء بعدما كان فارغا. ثم ينتقل إلى مدح الشريف مؤكدا أنه حالما تبرك ركائبه لديه فإنه سوف يطرد عنه الحاجة ويمحو الفقر ويهديه النوق الأبكار التي هو في أمس الحاجة إليها. ومنذ عصر الجاهلية حتى زمن ليس بالبعيد كانت الإبل من أنفس الأشياء التي يمكن أن يهديها الممدوح للشاعر جزاء له على مدحه. ولهجة أبي حمزة في هذه الأبيات تذكرنا بمقطع من قصيدة قالها جرير يمدح عبدالملك بن مروان يقول فيها:

تعزت أم حرزة ثم قالت رأيت الموردين ذوي لقاح
تعلل وهي ساغبة بنيها بأنفاس من الشم القراح
سأمتاح البحور فجنبيني أذاة اللوم وانتظري امتياحي

ثـقـي بـالـلـه لـيـس لـه شـريـك ومـن عـنـد الـخـلـيـفـة بـالـنـجـاح
أغـثـنـي يـافـداك أبـي وأمـي بـسـيـب مـنـك إنـك ذو ارتـيـاح
فـإنـي قـد رأيـت عـلـي حـقـا زيـارتـي الـخـلـيـفـة وامـتـداحـي
سـأشـكـر إن رددت عـلـي ريـشـي وأثـبـت الـقـوادم فـي جـنـاحـي
ألـسـتـم خـيـر مـن ركـب الـمـطـايـا وأنـدى الـعـالـمـيـن بـطـون راح

أو قوله من قصيدة يمدح بها عبدالعزيز بن مروان:

أغـثـنـي وأصـحـابـي بـضـامـنـة الـقـرى كـأن بـأحـقـيـهـا مـقـيـرة وُفْـر

ويمدح أبو حمزة الشريف قائلا إن علامات النجابة والسيادة والمروءة كانت بادية على محياه وواضحة في سلوكه وتصرفاته مذ كان صبيا لم يبلغ الحلم. وفي البيت السابع والخمسين يؤكد الشاعر على نفاسة قصيدته. وهو في هذا لا يختلف عن جرير حينما يقول مخاطبا يزيد بن عبدالملك:

خـلـيـفـة الـلـه إنـي قـد جـعـلـت لـكـم غـرا سـوابـق مـن نـسـجـي وتـحـبـيـري

ثم يؤكد أبو حمزة مرة أخرى على أنه لا يسترفد ولا يستجدي وإنما جاء فقط للسلام على الشريف والتشرف بمقابلته، ولكن حتى لو فرض أنه وفد مسترفدا فإنه ليس أول من يفعل ذلك فما أكثر من يفدون على الشريف لنيل عطائه لأنه ليس من العيب الوفود على الملوك. ولعل كلمة «مرجل» في البيت الرابع والستين فرضتها القافية بديلا لكلمة «مرجف» التي تشير إلى المرجفين ممن حاولوا أن يثبطوا عزيمته ويثنوه عن تصميمه على زيارة الشريف مشككين في أنه سيحظى بمقابلة الشريف ونيل عطائه.

ولو تفحصنا لغة هذه القصيدة لوجدنا أن كلمة «تطمل» في البيت الثالث والخمسين مثلا كلمة عامية مغرقة في عاميتها وهي مشتقة من الطمالة، أي الوساخة؛ ويصفون الشخص الوسخ الرث بأنه «طَمْلٍ طَنْبِلي». واستخدام الشاعر لهذه الكلمة العامية المغرقة في عاميتها ملفت للنظر، علما بأن الجو اللغوي العام للقصيدة أقرب إلى الجو الفصيح. وكلمة «الزمّل» أيضا في البيت الخامس والخمسين كلمة عامية تعني الخائفين، ويقال عن الشخص المتهيب أو الخائف إنه «زَمِل» والفعل «يزمل». وعبارة «حاش المروه» في البيت الواحد والخمسين عبارة عامية. ومن مظاهر العامية أيضا استخدام كلمات مثل «إلى» بدلا من «إذا»، و«حنا» بدلا من «نحن»، و«لقاه» بدلا من «لقاءه»، واستخدام كلمة «خلاف» في البيت قبل الأخير بمعناها العامي «بَعْدُ».

ومع ذلك تبقى في شعر أبـي حمزة بعض مظاهر الفصاحة على مستـوى المفردات والصيغ والتراكيب مما لا نجده في شعر شعراء النبط المتأخرين. من الكلمات الفصيحة التي لم تعد مستخدمة في اللهجة العامية كلمة «بعدما» والتي يقابلها في العامية «عقبما»، وكلمة «بعث» في البيت الثامن والثلاثين والتي يقابلها في العامية «دز» أو «كز» أو «أرسل»، وكلمة «رويدك» في البيت الثاني والأربعين والتي يقابلها في العامية «على هونك»، وكلمة «حديث» في نفس البيت والتي يقابلها في الـعامية «حكي» أو «كلام» أو «هرج» التي ترد بصيغة الجمع «هروج» في البيت الثاني. والكلمة الفصيحة «تشيح» في البيت الثامن تقابلها في العامية «تصد» وكلمة «عتب» في البيت السابع عشر تقابلها في العامية «شرهه». وصيغة الاستفهام «ماذا تريد» في البيت السادس والثلاثين فصيحة يقابلها في العامية «وش تبي». ونلاحظ أنه وإن كانت بعض المفردات فصيحة إلا أن إسنادها إلى ضمير الجمع المؤنث يأتي بالصيغة العامية التي تدمج غير العاقل مع العاقل ولذلك تقابلنا صيغا مثل «عرايكهن» في البيت الـخمسين بدلا من «عرايكـها». والعرائك هي الأسنمة والـتي تعتبر المقيـاس الحقيقي لجهد البعير ومخزونه من الطاقة حيث أن الـبعير الذي ذهب سنامه مثل المركبة التي نفذ مخزون وقودها. وهذه من الكلمات التـي ترد كثيرا وبنفس التوظيف الفني عند شعراء المدح الأقدمين مثل جرير والفرزدق والأخطل وذي الرمة وغيرهم.

٠١) زار الـخـلـيـل خـلـيل قـاصـى الـمنزلِ … يـحـدى إلـى خـفـق الـسـمـاك الأعــزلِ
٠٢) مـتـهــودجٍ زيـن الـهـروج وقــد هـوى … ريـف الــضـمـيـر وحـلّ ربـعٍ مـخـتَـلـي
٠٣) واحــلــوهـــا مـــن زورةٍ لــو أنــهـــا … الـى انـجـلـى صـبـح الـدجـى مـا تـنـجـلي
٠٤) فـابديـت صبرٍ واشتكيـت لمـن غـدى … يـطـفـي لـضـاي وكــل مـا شـا يـفـعـل
٠٥) بـادرت شـوقــي بـالـتـحـيـه بـعـدمـا … لــي بـان مـن وجـهـه صـبـاحٍ أكـمـل
٠٦) مــتـدلــلٍ تــيــهٍ عــلَــيّ جـــمــالــه … فــضــلٍ ولا بـالــحــب ظـنـي يـبـخـل
٠٧) يـــانـــافـــلٍ بـــالـــزيــن كــل مــدلــل … لـم يـخـط سـهـمـك مـقـتـلـي الـمـقـبـل
٠٨) أشـقـيـتـنـي عـمـدٍ بـغـيـر جـنـيّـة … فــإلـى مـتـى عـنـي تـشـيـح وتـبـخـل
٠٩) ارفـق بـمـفـجـوعٍ تـركـت ضـمـيـره … يـغـلـي مــن الـلـيـعـات غـلـي الـمـرجـل
١٠) قـبّـلْـتـنـي بـيـداً صـدودك حـافـي … لا حـــاذيٍ فـــيــهـــا ولا مــتــنــعــل
١١) نـهـضـت بـالشـكـوى عـلـيـك معـرّض … مـن بـعـد مـا حـزّيـت راس الـمـفـصـل
١٢) فـاسـأل إلـهي حـيـن مـا بـك لـي بلـى … بـمـحـبـةٍ أن يـبـتـلـيـك الـمـبـتـلـي

١٣) ما هوب واجب أن يهان مكرّمٍ   بعد الصداقة في هواك موجّل

١٤) عاديت من يهوى هواك ولا ولت   يمناه لَمّا شاف حكمك ميّل

١٥) فان كان مرضيك الصدود فإنني   راضي وحكمك شفت ما به تعدل

١٦) وراع العقوبه ثم ياعين الملا   توقّ من هو كاليتيم الأرمل

١٧) كم ذا جرى عتبي عليك ولم يكن   عتبك علينا بالزمان مجمّل

١٨) فينا ترى لين الكلام محرّم   والصد والهجران منك محلل

١٩) كتب المحبه والغلى مني لك   عين ومن ذا بالجفا قد كتب لي

٢٠) لو بان بك صرف النيا أو بان بي   نوٍّ وانا عن داركم في معزل

٢١) ودايعه محفوظةٍ واسرارها   من دونها بالقلب بابٍ مقفل

٢٢) ما ظنتي يحتال أو يشقى بها   حيٍّ ولا لطف اللسان يحق لي

٢٣) حلوٍ والذ من الشراب على الظما   وامر طعمٍ من نقيع الحنظل

٢٤) هش اللقا عسر القضا متعذر   بالعسر مني بالديون وهو ملي

٢٥) لَمّن جمعت له القريض محاول   باغٍ لعله لي يلين ويسهل

٢٦) مجازاة قوله ما انت إلا شاعر   والا فما تسمح بحبة خردل

٢٧) هجرتها عامين ثم لقيتني   خشنٍ ولا لي بالمطوعه يعمل

٢٨) ونهضت عنه ولا نهضت بطايل   والقلب مني بالمغيضه ممتلي

٢٩) ازعل عليه ولا ألاوي دونه   واصد عنه وْوِدّ وجهي يقبل

٣٠) وانا نويت السير ثم ادنيت لي   حمرا من الهوج الهجان البزّل

٣١) بالقرية العليا قد اضحى شملنا   . . . .

٣٢) من شوف خلٍّ هل دمعه بالبكا   وافضى بدمع العين ماها قد ولي

٣٣) يهل منهاً كنها مكحولةٍ   بالشب أو مكحولةٍ بقرنفل

٣٤) جزعٍ وتهيامٍ على شوقٍ لها   والحب يبلى به بعيد الاطول

٣٥) تقول لي خذني أميمٍ بعدما   شافت سواي مسيرة المترحل

٣٦) ماذا تريد ومن تكون تزوره   لا أنت زوّارٍ ولا متحيّل

٣٧) قلت الشريف ابن الشريف أزوره   ابن المطهرة البتول ابن الولي

٣٨) بعث الكتاب وقال في عنوانه   حنا لغيرك بالتحيه نبخل

٣٩) بعيدين قالت والفراق مغيضها   منها ولا لي عن لقاه تحول

٤٠) تقول لي ذاك النهار ودمعها … من جوب عينيها يفيض ويمتلي
٤١) أنتم غبوقكم القراح وغيركم … يعل من البان البكار وينهل
٤٢) فكففتها لما سمعت حديثها … قاسي وقلت لها رويدك اعقلي
٤٣) لا تكرهي عدم الكريم من الملا … فالسيل حربٌ للمكان المعتلي
٤٤) يهفى عن الرعن الطويل بمايه … ويقر بالغمض الوطي الأسفل
٤٥) وان كان قل اليوم ما ملكت يدي … فالدلو أحيانا يفيض ويمتلي
٤٦) وتيقني اني وكل ذخيرةٍ … ما نذخر الا للزمان المعضل
٤٧) ذخرٍ الى بركت إليه ركائبي … لم أشتكي عدم البكار الجفّل
٤٨) الفاطمي الهاشمي ومن له … شرفٌ أناف على السماك الأعزل
٤٩) فأنخن من جو ا ٠ ٠ ٠ ظمر … يرقلن إرقال النعام الجفّل
٥٠) أفنى عرايكهن تطاويح السرى … عليه من بعد السلام تحمّل
٥١) كبش بن منصور بن جمّازٍ ومن … حاش المروّه قبل عقله يكمل
٥٢) ذروة قريشٍ كلها وخْيارها … واسقامها الصعب الذي ما ذلل
٥٣) مثل النجوم نقيّةٌ أعراضهم … ومنزّهاتٍ عن عيوبٍ تطمل
٥٤) الثابتين إذا القلوب تراجفت … اللاكزين على عريض الجحفل
٥٥) المصطلين من الحروب لهيبها … ساعة يفر عن الحروب الزمّل
٥٦) فمن يجاورهم يجاور سادة … أمن المخيف إذا بهم لم يجهل
٥٧) ياكبش جيت بدرّةٍ مصيونةٍ … عن من سواك بها نشح ونبخل
٥٨) ما قلتها يابن الشريف تحيّل … في مالكم لو كان صعبه يسهل
٥٩) الا لعرفك لي من اكبر مطمعٍ … وتنظّري في وجهك المتهلل
٦٠) قلايصٍ ودّنيك حقايق … أن يرتعنّ مع النعام الجفّل
٦١) يعفين عن شد الرحيل جزًا لما … بَلّغْنَنيك مع السعود المقبل
٦٢) ياإبن من لقحت مطية ضيفه … واستَنّ تابعها وهو ما يسأل
٦٣) مناب أول واحدٍ هجّت به … قودٍ إلى مَلْكٍ بنيله يجزل
٦٤) نوّخن في رحبة ذراك فربما … يرجع هواي بضد حكي المرجل
٦٥) وانا خلاف ابصار وجهك راجيٍ … ان النحوس خلاف شوفك تنجلي
٦٦) ثم الصلاة على النبي محمد … ما ناض برقٍ من سحابٍ واشعل

وكما سبق أن أشرنا في الفصل الذي تحدثنا فيه عن مسمى الشعر النبطي، ترد في البيت قبل الأخير من قصيدة دالية لأبي حمزة تبلغ سبعين بيتا كلمة نبطي للإشارة لهذا الشعر الذي نتحدث عنه، وبذلك نستطيع تأريخ بدايات استخدام هذا المسمى. يبدأ أبو حمزة قصيدته متغزلا بمعشوقته أميم ثم يعرج على الفخر بنفسه وبقبيلته. يستهل القصيدة بالحديث عن طيف أميمة الذي يزوره قبيل انبلاج الصبح بعدما أناخ أصحابه المكدودون رواحلهم المنهكة ليستريحوا قليلا قبل مواصلة السير في اليوم التالي. ومطلع القصيدة شديد الشبه بقول معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب الملقب معود الحكماء والذي يقول:

طرقت امامة والمزار بعيد وهنا وأصحاب الرحال هجود
أنا اهتديت وكنت غير رجيلة والقوم منهم نبه ورقود

هذه الصورة التي تتكرر كثيرا عند شعراء الفصيح تتكرر أيضا عند شعراء النبط القدامى وسوف تطالعنا في قصائد الشعيبي والعليمي وغيرهم. والحديث عن الطيف موضوع طرقه الشعراء العرب كثيرا منذ أيام الجاهلية واستمر شعراء النبط في توظيف هذا الموضوع الشعري، كما استمروا في إطلاق أسماء أغلبها وهمية على النساء اللاتي يتغزلون بهن، ومن هذه الأسماء أميم الذي يرد كثيرا في شعر جرير وغيره من شعراء عصور الفصاحة. وهذا مجرد تقليد شعري وخيال فني. لكن الرواية الشعبية التي تحاك حول أبي حمزة والتي سبق إيرادها تستبدل بهذا التفسير الأدبي الأسطوري تفسيراً حرفياً تاريخياً يجعل من أميمة شخصية حقيقية يحبها أبو حمزة ويتزوجها. يقول أبو حمزة إنه بعدما هوى نجم الثريا نحو المغيب جاء طيف أميمة يتمشى بين أرجل النوق التي أنضتها الأسفار حتى أصبحت كالنصال. والنصال كلمة فصيحة لم تعد مستخدمة عند العامة ويستخدمها أبو حمزة في نفس البيت مع كلمة عامية هي «يكهلن» بمعنى «يعجزن» حيث بلغ الإجهاد من الإبل مبلغه ولم تعد تطيق حتى الرغاء. ولهزالهن لم يعد أصحابها بحاجة لقيدها بالعقل حينما ينيخون للراحة، فهي لن ترغب في الحراك أصلا لفرط هزالها وإجهادها. وسوف نجد هذا المعنى يتكرر لاحقا في قصيدة للشعيبي يمدح بها بركات الشريف المشعشعي. كما نجد أن شاعرا فصيحا يسمى أبو محمد علي بن الأزهر بن عمر بن حسان يعبر عن نفس المعنى في بيت أورده له الباخرزي في <u>خريدة القصر وعصرة أهل العصر</u> (الباخرزي ١٩٦٨، ج١: ٧٨)، وهو:

البيد يا أيدي المهار البيدا حتى يصير لك الكلال قيودا

ويصف أبو حمزة ماء الموارد التي يردونها بأنه راكد وآسن لقلة من يطرقه ويحركه أثناء عملية الاستسقاء، وهذا كناية عن أن هذه الموارد في بلاد بعيدة موحشة لا يستطيع أي إنسان أو عابر سبيل اجتيازها والتوغل فيها. وليس أدل على عظم المشقة من أن يعز عنصر الحياة وهو الماء في مجاهل الصحراء المحرقة مما يضطر المسافر إلى شرب ما لا يستساغ شربه. وكثيرا ما طرق الشعراء هذا المعنى كقول جرير في قصيدة يمدح بها الوليد بن عبدالملك:

ولقد قطعت مجاهلا ومناهلا وجمام آجنها كلون العندم

ومثله قول الأعشى:

وكم دون ليلى من عدو وبلدة وسهب به مستوضح الآل يبرق
وأصفر كالحناء طام جمامه إذا ذاقه مستعذب الماء يبصق

وقول عبيد بن الأبرص:

غرب ماء وردت آجن سبيله خائف جديب
ريش الحمام على أرجائه للقلب من خوفه وجيب

وقول المتنخل اليشكري مخاطبا حبيبته التي اسمها هي الأخرى أميمة:

وماء، قد وردت، أميم، طام على أرجائه زجل الغطاط
قليل ورده، إلا سباعاً يخطن المشي كالنبل المراط
فبت أنهنه السرحان عني كلانا وارد حران ساطي
كأن وغى الخموش بجانبيه وغى ركب، أميم، ذوي هياط
كأن مزاحف الحيات فيه قبيل الصبح آثار السياط

ويعلق أبو حمزة موضوع الخيال برهة ليستطرد في وصف النوق ثم يعود بعد ذلك إلى الحديث عن طيف أميمة. وصورة الجنادب في البيت السابع وهي تنزو من حر الهاجرة من الصور التي تتكرر عند شعراء النبط الذين جاءوا بعد أبي حمزة؛ كما سنرى في البيت الثالث والستين من قصيدة عامر السمين في مدح شريف مكة بركات بن محمد وفي البيت الثاني والأربعين من بائية الشريف بركات المشعشعي التي يعاتب فيها أباه مبارك؛ وهذه الصورة تذكرنا كذلك بقول الشنفرى: ويوم من الشعرى يذوب لوابه/ / أفاعيه في رمضائه تتململ؛ وقول جرير: بيوم من الجوزاء مستوقد الحصى/ / تكاد صياصي العين منه تصيح.

ثم يسرح الشاعر في الذكريات التي تتداعى إلى خياله لتذكره بنعيم الشباب وترف العيش الذي فارقه في رحلته هذه. ولا يجد الشاعر أمامه طريقة يعبر بها عن وفائه لمراتع الشباب ومغاني الصبا إلا الدعاء لها بالسقيا. وبعد أن يعود مرة أخرى إلى الحديث عن الحبيبة وأوصافها يخرج إلى الفخر بنفسه وبقومه مما يدل على نباهته وعلو شأنه. ووصف الشاعر لأصحابه المجهدين في البيت الخامس عشر يذكرنا بقول المجاشعي (الباخرزي ١٩٦٨، ج١: ٣٧)، وهو شاعر فصيح توفي سنة ٤٧٩:

وركب نشاوى قد سقتهم يد الكرى   بكأس عقار فوق قود طلائح

وميل على الأكوار صيد كأنهم   سرى صبحوا الصهباء من كف صابح

وفي البيتين السابع والثلاثين والثامن والثلاثين يشبه الشاعر أظعان الحبيبة الراحلة وما يعلوها من هوادج وكلل مزخرفة وملونة بمختلف الألوان بفروع النخل الموقرة، ويعود إلى هذا التشبيه في البيت الواحد والعشرين من قصيدته الهمزية المشهورة؛ وهو هنا يتتبع خطى شعراء الجاهلية من قبله، كما في قول امرؤ القيس: أو ما ترى أظعانهن بواكرا// كالنخل من شوكان حين صرام؛ وقول المرقش الأكبر: بل هل شجتك الظعن باكرة// كأنهن النخل من ملهم؛ وقول جرير: كأن أحداجهم تحدى مقفية// نخل بملهم أو نخل بقرانا؛ وقول ذى الرمة: نظرت إلى أظعان مي كأنها// ذرى النخل أو أثل تميل ذوائبه.

وهكذا نجد هذه القصيدة لم تبتعد كثيرا في عمودها وفي جوها الفني عن شعر عصور الفصاحة في بادية الجزيرة العربية. وبعض المفردات التي تتكرر في شعر أبي حمزة مفردات فصيحة اختفى وجودها من لغة الشعر النبطي منذ مئات السنين. من هذه المفردات أول كلمة يفتتح بها أبو حمزة قصيدته «طرقت» والفعل الفصيح «طرق» يقابله في العامية «خشل» أو «هشل» أو «هجد» أو «ضوى». والجمع الفصيح «أنيق» يقابله في العامية «نوق» أو «نياق». ومن المفردات الفصيحة التي اختفت الآن من لغة الشعر النبطي «هجيرة» في البيت السادس و«الناجيات» كصفة للإبل في البيت العاشر و«طافت» في البيتين العاشر والحادي عشر. وفي حديثه عن الإبل يستخدم أبو حمزة الكلمتان «بقين» في البيت الرابع و«أضحين» في البيت التاسع وهما كلمتان فصيحتان لكنهما بدلا من ورودهما بالصيغة الفصيحة «بقت» و«أضحت» تردان بالصيغة العامية التي لا تحذف حرف العلة في الفعل الناقص في حالة إسناده إلى الضمير ولا تفرق في حالة إسناد الفعل إلى الضمير بين جمع المؤنث العاقل وجمع المؤنث غير العاقل. وفي البيت السابع

والعشرين يرد أحد الأسماء الخمسة، علما بأن الأسماء الخمسة لم يعد لها وجود في لغة الشعر النبطي. والقصيدة، كما ترى لا تخلو من لمسات الفصاحة التي اختفت معالمها من لغة الشعر النبطي في عصوره اللاحقة. لكننا نجد، من الناحية الأخرى، مظاهر تفشي العامية على مختلف المستويات المعجمية والصرفية والنحوية. ولو أننا مثلا تفحصنا أربعة الأبيات الأولى فقط فإننا سنجد «كنه» بدلا من «كأنه» و«تِمَشّى» بدلا من «تتمشى» و«ماً» بدلا من «ماءٍ» و«الى» بدلا من «إذا». (لاحظ انتسابه إلى شبانه في البيت السابع والخمسين):

٠١) طرقت أميمُ والقلاص سجودا والنجم هاوي كنه العنقودا
٠٢) قامت تمشّى بين أرجل أنيقٍ فيهن من سوج الرحال لهودا
٠٣) ياما سقيناهن من ماً آسن والجم في عالي جباه ركودا
٠٤) فإلى شربن بقين منه مجهّد لو كان ما باجسادهن جهودا
٠٥) يكهلن عن ضعف الرغا عن شغف شروى النصال اليفلق المبرودا
٠٦) افنى عرايكهن تطاويح السرى ومسير كل هجيرةٍ صيهودا
٠٧) تنزي جنادبها إلى حمي الحصا من وهج حر سمومها الماقودا
٠٨) وغدن في مثنى المسير عوانف مستنفراتٍ كلهن شرودا
٠٩) واضحين لو عُرّين من أكوارهن وسَرِحن ما ليثت لهن قيودا
١٠) طافت بنا والناجيات جواثم والليل ستر رواقه الممدودا
١١) طافت بقومٍ شاربين من الكرى كاسٍ بلذات المنام رقودا
١٢) قامت تحيينا فقلت ياحيها حي العزيز الغالي المفقودا
١٣) ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ .. ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ غرقى وظل نظيرها مقدودا
١٤) وندبت خلاني فقاموا حسرٍ متقلّدين عمايمٍ وبرودا
١٥) يتعثّرون من النعاس كأنما ثملت عضاهم إبنة العنقودا
١٦) ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ من بعد ما سمروا الرجال القودا
١٧) ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ جدّاتهن ولا لهن حديدا
١٨) قمنا نسائل بالرباء منازل فيهن أطلت لعيني الترديدا
١٩) خلوٍ سوى مثل الجماجم جثّمٍ سفع على متن الجيوب حمودا
٢٠) وموجه للدين منحني ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ بالترب بعض حصاهن المنضودا

٢١) بالشعب شعب بياض أيام ما — نبعث بفرقان الطيور السودا
٢٢) أيام انا والبيض ما ينكثن لي — عهدٍ ولا يخلفن لي بوعودا
٢٣) كم ليلةٍ قد زرتهنّ وصارمي — شرثٍ سنين الجانبين حدودا
٢٤) وكنفن بي فرحٍ بلام زيارتي — كالعابدات ابدن بالمجهودا
٢٥) واسقنّني طوعٍ بغير كريهة — ماي بها عمر الغلام يزيدا
٢٦) ما بين وضاحٍ وبين مفلّج — صاف الشبا حلو المذاق برودا
٢٧) وسقت معالم ذا الديار سحايب — غرا وذات بوارقٍ ورعودا
٢٨) يسقي ديار خريدةٍ رعبوبة — هيفا كعود الشاكر الممدودا
٢٩) تدني وتقصي بالهوى ووصالها — من دون قضب الكف وهو بعيدا
٣٠) أخذت من الأنظار ما هو زانها — الخد ثم العين ثم الجيدا
٣١) سمح الزمان لنا بطيب وصالها — أيام عنا الحادثات رقودا
٣٢) ٠٠٠ الحادثات وقد شظى — شملي وبين فيهن التبديدا
٣٣) وادنوا مطاويع الجمال لنيّة — توزي مراميها علَيّ تكودا
٣٤) ومحا الزمان علَيّ تالي وصلها — وامتَدّ طنب وصالها الممدودا
٣٥) فكنّيت ما بي بالحشا متبطّنٍ — ليعات وجدٍ ما لهن برودا
٣٦) أبدى غبي سرايري من مقلتي — ٠٠٠٠٠ بعين حسودا
٣٧) لكن ظعاينهم نهار تقللوا — ذاك النهار وحق منه مديدا
٣٨) نخلٍ لدى واد القطيف يزينه — حملٍ يشوق الناظرين نضيدا
٣٩) أو طلع واد الباطن قد هب به — ريحٍ تميل بروسها وتميدا
٤٠) أميم هل لا تعلمين كريهة — منها تهز مفاصل الرعديدا
٤١) كنا شقا فرسانها حتى بقت — عنا الكماة البارعين تحيدا
٤٢) وياما بنا خطّيةٍ وصوارم — بيضٌ وكل عديدةٍ وعديدا
٤٣) خيلٌ تُصان ولا تُهان وربما — فرّجن كرب الطايح المضهودا
٤٤) لا يسترحن ولا يُرحن محاربٍ — يومٍ ولا جفّت لهن لبودا
٤٥) يسرحن من حربٍ وهن بمثله — ويردن ما لا يشتهين ورودا
٤٦) فإلى وردن صدرن منه كواسب — بالصيرمي ركابهن حمودا
٤٧) وإلى تخالفن العلايم بيننا — فالعز تحت لوائنا الممدودا

٤٨) لا تكره ايام الصياح فربما ياتيك بايام الصياح سُعودا
٤٩) كم سابقٍ قد دستها ومن ابلج من ضدّهن ودّعته المفقودا
٥٠) ينوي محاولة القيام وقد لجا في صدره زرقا حداها العودا
٥١) . . . . يجي لهن الى طردن طريدا
٥٢) ترمح جواجيهن كل متوّجٍ صنديد ابن متوّجٍ صنديدا
٥٣) لا نعتلث بصدودهن وهن ماً يلقين منا باللقا تصديدا
٥٤) أميم كم حرب شبت ناره ثم اصطلينا حره الماقودا
٥٥) بعنابرٍ شم الأنوف لبوسهم بالحرب كل مظافرٍ مزرودا
٥٦) سلم الحديد منيعة حلقاته مما قد احسن صنعته داودا
٥٧) قومي شبانة ذو المفاخر والعلى والعود ينبت في مكانه عودا
٥٨) المركبين الضد كل كريهة النازلين المنزل المحمودا
٥٩) السالمين من العيوب وبالقسا عيد الضيوف إلى غلى الماجودا
٦٠) قوم تزيدهم الحروب شجاعة والغير منهم بالحروب يبيدا
٦١) ما يشتكي منا الصديق شكية يومٌ ولا رزّت عليه بنودا
٦٢) نبدي بحاجاته على حاجاتنا بْغَمّ العدا وبمبتغى المقصودا
٦٣)ياميم لو كان الزمان وضيمه اقصاك في سفرٍ علَيّ بعيدا
٦٤) فانا على ما تخبرين من الهوى وهواك لو درس الزمان جديدا
٦٥) جلدٍ على ريب الزمان وضيمه وعلى هواك أميم غير جليدا
٦٦) وعذبٍ بأفعال الجميل وقبل ذا مستارثه من سالفٍ وجدودا
٦٧) لا مستكينٍ عند نابيةٍ ولا متضعضعٍ عن غاليٍ مفقودا
٦٨) الله من بيت وقصيدة شاعر عند الأمور المعضلات حميدا
٦٩) كالدر إلا أنها نبطية تحلى على التكرير والترديدا
٧٠) ثم الصلاة على النبي محمد ما ناحت الورقا براس العودا

ولم أجد أي ذكر لشريف يدعى الحارث بن محمد مدحه أبو حمزة في قصيدة وجدتها في مخطوطة الذكير تبلغ تسعة وأربعين بيتا لم أستطع قراءة معظمها. ويشير البيت الرابع والأربعين إلى أن الحارث بن محمد هذا من ذرية أبي نمي أشراف مكة. ومن المفردات الفصيحة التي ما زالت قيد الاستعمال أيام أبي حمزة كلمة «آناف» جمع

«أنف» في البيت الأربعين والتي استبدلت الآن بكلمة «خشوم». وهذه القصيدة تذكرنا في بحرها وقافيتها بقصيدة جبر بن سيار التي بعث بها إلى رشيدان بن غشام في الأحساء:

٠١) النفس لا بِعْسارها ويْسارها ... ولا تنل غد يمينها ويسارها
٠٢) فالعين لا ترضى بمر معيشة ... بدار الهوان ولو جرين انهارها
٠٣) واختصها الباري بضعف يقينها ... منعت لنيل اعراضها بانظارها
٠٤) وكذلك الدنيا بطيب نعيمها ... حلواتها ممزوجةٍ بامرارها
٠٥) وتفاوت اشياها شقا إنسانها ... لافعالها وارباحها واخسارها
٠٦) فبقت صفاياها لعظم خطوبها ... فضلٍ لقسمٍ ملّكوه ديارها
٠٧) وتناظرت لانفال واستبقوا لها ... فتشعبت بهم على مقدارها
٠٨) وسعادة الدولات في فضل الوفا ... طيبٍ ولو نال العلا غدارها
٠٩) وجفا الحليم ولا بشاشة جاهل ... كن بي لذيك وخلّ ذي واكدارها
١٠) ان الذي لو كان مثلي لايق ... به ترك قوله نبّهته خيارها
١١) لي سادة نصحي لها ومودّتي ... ومدايحي والوذ انا باسرارها
١٢) متجلّلٍ من فضلها ونجوا بها ... وافي شقارٍ والقضا باشعارها
١٣) واليوم قولي جاز لي فيه القضا ... شيخٍ يحل من الخطوب وسارها
١٤) مُسدي الجميل إلى غلى سعر القرا ... وشجاعها في حربها مغوارها
١٥) تاج الملوك الحارث بن محمد ... ازكى قريشٍ كلها وخيارها
١٦) فتى وشيخٌ للجميل وطال ما ... له الرجوع الى عمين ابصارها
١٧) ونو العهود حمود ازكى . . . ... بحزومها ورمالها وظهارها
١٨) وحليمها ان عميت جلا علاتها ... واسترهقت فيها حلوم اخيارها
١٩) نفله على عصره بكل مهمة ... بضمارها وضرابها واخطارها
٢٠) ياما سعى بهجارها وصدورها ... متحملٍ لورادها وصدارها
٢١) وان طاوعوا صلح الجميل فليس له ... من صالحٍ يتحمله باوزارها
٢٢) . . . . لمذاق كل كريهة ... مبذولها ممهولها صبارها
٢٣) . . . . يم الصديق سرايره ... واسرار غيره بالصديق اضرارها
٢٤) . . . . . شفت انا من شومها بخشومها ... لم يلتجي من حربها خوّارها
٢٥) . . . . يبدى الكدى واسقى الخصيم ذعارها

٢٦) ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠كـــل خـــريـــدة كـالـشـمـس نـور جـبـيـنـهـا بـخـمـارهـا
٢٧) الا ولا لـــمـــدامـــة عـــنـــبـيـــة ســوق لــســاقـيــهــا وحــلــو مــدارهــا
٢٨) ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠فسايلت واسقت لهم مــن كـاســهــا وتـرنــمـت بــاطــيـارهــا
٢٩) وتـصـبـرت هـمـم الـنـفـوس فـهـمـتـه فـي مـعـزلٍ عـن غـيـهـا واسـحـارهـا
٣٠) الا ولا لـــفـــرايـــده٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ كـثـر الـقـمـاش ولـو غـلـيـن اسعـارهـا
٣١) فما رابح اولاد الـملوك٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ بـفـضـايـلٍ فـيـهـا تـطـول اشـبـارهـا
٣٢) فـلا خـيـر فـي رجـلٍ يـفـوز بـمـفـخـر جـزّارهــا ايًــام الــقــســا تــجــارهــا
٣٣) واقـول وانـا مـا قـضـيـت حـسـايـف غـوثٍ ولا قـضـت الـنـفـوس اوطـارهـا
٣٤) يـاسـيـدي قـد قـيـل كـم مـن سـابـق خـطـرٍ يـخـلـص قـيـنـهـا مـسـمـارهـا
٣٥) فـالـعـذر بـالـراضات عـن تـنـبـيـهـهـا حـربٍ كـفـى الـلـه شـرهـا واشـرارهـا
٣٦) عـسـاك فـي عـورا الـصـديـق تـكـنـهـا وعـداك بـالـهـنـدي تـكـف اشـرارهـا
٣٧) بـاتـلاف مـا فـتـق الـحـسـود فـربـمـا فـيـمـا قـضـى الـبـاري تـعـيـن اخـيـارهـا
٣٨) وحـي الـديـار خـلاف مـا عـشـنـا بـهـا لايـام واسـتـهـزا بـهـا جـرارهـا
٣٩) يـبـدي مـسـالـمـةٍ لاهـلـهـا ضـدهـا والـكـل مـجـتـهـدٍ بـهـا لـدمـارهـا
٤٠) فـانـت الـذي ضـربـت انـاف الـعـدا فـتـقـاصـرت ايـامـهـا واعـمـارهـا
٤١) ورقت بـك اصحـاب المعالي مجلس فـاتـوا بـهـا حـوّالـهـا واشـوارهـا
٤٢) فـان جـانـبـت لاريـا وحـل عـقـودهـا وتـجـاورت بـاخـيـارهـا واشـرارهـا
٤٣) وتـجـنـبـت سـهـل الـطـريـق فـربـمـا يـعـنـاك رشـدٍ بـارتـكـاب اوعـارهـا
٤٤) فـي لابـةٍ حـسـنـيـةٍ نـمـويـةٍ عـلـويـةٍ تـقـوى الالـه اسـرارهـا
٤٥) مـتـجـنـديـنٍ لـلـصـوارم طـبـعـهـا فـري الـجـمـاجـم بـاطـلا مـخـتـارهـا
٤٦) وعـزايـمٍ أمـضـى لـقـوم اقـوالـهـا فـعـلـى سـرابـيـل الـحـديـد اشـوارهـا
٤٧) فـي راي مـن يـعـفـى حمـى زلـبـاتـهـا ان جـلـلـوا جـرد الـجـيـاد غـيـارهـا
٤٨) فـي دولـةٍ يـسـعـى لـهـا مـنـه الـوفـا ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠
٤٩) ثـم الـصـلاة عـلـى الـنـبـي مـحـمـد ازكـى قـريـش كـلـهـا وخـيـارهـا

وهذه قصيدة أخرى تبلغ أربعة وخمسين بيتا وجدتها في مخطوطة الذكير لأبي حمزة يوصي فيها ابنه حمزة أن يعتني بأخواته بعد موته وأن لا يتكل على الأعمام في رعاية شؤونهن، ويعبر عن ذلك بكلمة «تِـكْـلِـه» أي «اتكال» وهي كلمة عامية صرفة، ومثلها

كلمة «جفاسه» أي «رعونة، خشونة». وهناك بالمقابل كلمات فصيحة لم تعد مستعملة في العامية مثل «فظ» في البيت الحادي عشر و«تغدو» في البيت الثاني والعشرين. وفي البيت الحادي والعشرين ترد كلمة «امر» بتخفيف الهمزة الأولى وحذف الأخيرة من الكلمة الفصيحة «إمرء». وفي آخر القصيدة يوصي أبو حمزة ابنه بالصبر على الشدائد وأن لا تضعضعه أهوالها وتخيفه وتفت في عضده. ويحضه أن يعيش عيشة عزيزة لا ذل فيها ولا خنوع وأن يكون محل إكبار وإجلال وأن لا يقال عنه إنه تافه وضعيف «دقاق السلك». ثم يوصيه باجتناب البخل وأن يصون عرضه. ثم يوصيه بالجار الذي يحاول أن يحيا حياة كريمة رغم ما هو فيه من عوز. ثيابه رثة لكنه شخص نبيل عرضه صقيل لم يدنس وخلقه مستقيم، لا يبخل بما ملكت يده تحسبا للطوارئ بل يبذل ما عنده متكلا على الله، ويحرص على صلة الرحم. يقول أبو حمزة لابنه إذا نزل مثل هذا الإنسان بجوارك فاستر عليه وكن عونا له على دنياه حتى يذكرك بالخير حينما يرحل عنك. سمعة الرجل وقيمته في المجتمع البدوي تزداد بمقدار ما يتراكم لديه من رصيد في حسابه الاجتماعي من مديح الناس وثناءهم على كرمه وشجاعته ونخوته. وربما نستشف من البيت الثالث أن أبا حمزة من سكان وادي القرى. وواضح من موضوع القصيدة أنها من القصائد التي قالها بعدما تقدم به السن.

٠١) هل في الوصال إلى الخليل سبيلا   والموت يشعب لام كل خليلا
٠٢) كيف ان ينام فتىً قد اضحى شمله   متمايزٍ وقواه غير وصيلا
٠٣) اضحى لدى الوفرا وفي وادي القرى   له بين هذيك الخيام خليلا
٠٤) غروٍ غريرٍ إستمال بمهجتي   ودٍ لها وكذا المحب يميلا
٠٥) عجميةٍ ذا تَوّ بان عرابها   ولها حديثٌ يوجب التضليلا
٠٦) تلوي بنانيها علَيّ إلى بدا   يومٌ لنا بعد المقام رحيلا
٠٧) لو غبت عنها فرد يومٍ واحد   فهو كما دهرٍ علَيّ طويلا
٠٨) فإلى ندبنا بالفراق تبادرت   عينيّ في يوم الوداع هميلا
٠٩) اوصيك ياحمزه بها هي واختها   كسلا ولا يُعطى الوصاة علولا
١٠) وبعيلةٍ وبجوذرٍ واذْر انهم   قلب الولوف لحالهن وجيلا
١١) رف ياحبيبي بي لهن ولا تكن   فظٍّ فتورث في حشاي شعيلا
١٢) واياك ان تدعي العمومه تكله   فالعم من عاد الزمان وبيلا

١٣) لو كانوا اجوادٍ فقلبي خايف منهم وكل فتىً بداه دليلا
١٤) ان ينقلب لين القلوب جفاسة أو يبتدل بشش الوجوه بديلا
١٥) أو ياكمون قلوبهن فيستوي لعيونهن على الخدود هميلا
١٦) أو يلطمون خدودهن تعمّد فعسى يدٍ تعلو الخدود شلولا
١٧) فان كنت ساعٍ في رضاي وخايف غضبي وقولٍ في العباد وقيلا
١٨) فان بِتّ في خيرٍ وجت لزيارة منهن عجفا والشياب سمولا
١٩) فاياك ياولدي ان تصد وبادها بالخير والترحيب والتسهيلا
٢٠) وابعض لها مما تحوش ولا تكن ممن يرى المد الزهيد جزيلا
٢١) وابد البشاشة للضيوف ولا تكن إمرٍ يسب بين الملاء ذليلا
٢٢) تغدو وهي بجحانةٍ مسروره وتطول بين أعادي وخليلا
٢٣) حتى تقول الناس غب مزارها ما للأصول الجيّدات مثيلا
٢٤) هذاك ياولدي مبر ضمايري ان عاد ليّ من الحياة طويلا
٢٥) واعلم بأن مهينهن يهينني وان الذي يحكي لهن جليلا
٢٦) يسرني ما سرّهن ولو هفا دوني صفايح حفرةٍ ومهيلا
٢٧) يلقى الحوادث من يعين ويلتقي عن كل حادثة الزمان قويلا
٢٨) الله لا يتكل جميع أمورنا إلا إليه فهو خير وكيلا
٢٩) واياي واياك ان بدا بك نكبه أو مال دولاب الزمان تهيلا
٣٠) اصبر فلا بد الشدايد تنجلي برخا ولا بد المسيل يسيلا
٣١) للعسر حتنٍ لازم واخيره يسرين مكتوبات بالتنزيلا
٣٢) فالعسر يسرٍ مرتينٍ والغنى دهر وظلّ لا يزال ظليلا
٣٣) واجعل لك العمر الطويل طماعه واصبر فباعٍ الصابرين طويلا
٣٤) وكذا السماويات تفتح للغلا ونبات واوفا للبيوت نكولا
٣٥) وكذا شياهين البحار سواغب وكذا الحدا صفر العيون فتولا
٣٦) فاضرب مكاد الهاجرات ولا تدع لك عن سموم الهاجرات ظليلا
٣٧) واياك ياولدي إذا شب الوغى تضفي الغطا وتقول انا معلولا
٣٨) ضرب الهواجر والظلام على الفتى ولقاه قومٍ قاتل وقتيلا
٣٩) أشوى من المهفا وحاجة مبغض توزيك الى جا فى الجناب بخيلا

٤٠) ومن احتقار الأقربين وقولهم هذا دقاق السلك غير جليلا
٤١) ليت ارتفاع النفس مثل هبوطها هيهات ما هذا لذاك مثيلا
٤٢) واياك ياولدي وعيشة هافي متلافي يتلى النوال بخيلا
٤٣) متضايلٍ متضاعفٍ متتاوكٍ مثل الكليل وليس هو بكليلا
٤٤) اخذ اللهاسه والرزاله عاده متليش مغل يكون غليلا
٤٥) شٍ ما يصح من العباد نواله وان صح نول العالمين قليلا
٤٦) وان يبخلون هو الغني بخلقه متوكلٍ بالرزق غير بخيلا
٤٧) لا يعجبنك فتىً يصون ثيابه خوف الغبار وعارضه مدهولا
٤٨) والله ما افقر فقيرٍ ريته دنس الثياب وعارضه مصقولا
٤٩) فيهن أعز النفس في طلب العلا فالكل في طلب الغناة جميلا
٥٠) والى ابن عم بالرفاقه مقصف قد بان عنه نوالهم معدولا
٥١) متوكلٍ فيما يحوز وواصل رحم ومن ذات الجوار نزيلا
٥٢) فاستر عليه ولا تكون مواحن للجار يمسى الجار منك وجيلا
٥٣) الا وكن للجار اخوٍ صالح وعلى الأمور المعضلات عويلا
٥٤) حتى إلى ما بان وامسى شاكر فانت الخيار ولا حذاك مثيلا

وهذه قصيدة تبلغ سبعا وثلاثين بيتا (لاحظ التضمين في البيت الأول الذي لا يتم معناه إلا بقراءة البيت الثاني وفي البيت الثالث عشر الذي لا يتم معناه إلا بقراءة البيت الرابع عشر). وكلمة «الجما» في البيت العشرين ترد في الفصحى بمعنى «شخص» أو ما نطلق عليه في العامية «زول» وهذا قريب من معناها هنا والذي يشير إلى هيكل الناقة العظمي بعد أن ذهب شحمها ولحمها من الإعياء وطول السفر. وسوف ترد هذه الكلمة مرة أخرى وبنفس المعنى عند شاعر آخر من شعراء الدولة الجبرية هو ابن زيد في قوله: لكن جما حرجاتهن عرين. والحرجات هي النوق التي تكاد تنفق من الإعياء. ورغم اختفاء هذه المفردة من الشعر النبطي إلا أننا نجدها تتكرر في النماذج القديمة وهي من المؤشرات اللغوية التي يمكن الاحتكام إليها في تحديد عصر القصيدة حيث أن ورودها يوحي بأن القصيدة قديمة.

٠١) يامل قلبٍ لو نهيته ما سلا مستايس ما يقتوي صبر ولا
٠٢) يقوى السلُوّ ولا يروم تجلد الا مُعَنّى بالتصيبي مبتلًى
٠٣) ولعٍ بغضّات الشباب خرايد بيضٍ رعابيبٍ جميلات الحلى

٠٤) نجل العيون بهنّ حسنٍ بارع   وجياد غزلان السليل الجفّلا

٠٥) كم ليلةٍ غاب الرقيب وليلة   بتنا نجاذبهن غوال الذبّلا

٠٦) اوعدنني وكفنّني واسقنّني   من كل فاهٍ برد ماه معسّلا

٠٧) يشفي القلوب ذوات حسنٍ كامل   لولا هواهن ما عصيت العذلا

٠٨) منهن لي حوريةٍ قيسية   هيفا العلا خمص الكلا رجح التلا

٠٩) تركيةٍ عجميةٍ روميةٍ   حسن البها باقصى الجميل مجملا

١٠) سكرانةٍ دجرانةٍ ريانة   مقبولةٍ كسلا بغير تكسلا

١١) خمصا كعابٍ طفلةٍ مجمولة   كالليل ضافي شعرها المتعثكلا

١٢) يجلي ظلام الليل سنّة وجهها   والبدر منها والكواكب تخجلا

١٣) هيفا خدلّجَةٍ ملاقا حجلها   يشكى الجفا والضيق من ساقه ملا

١٤) خلخالها حتى لكن بمشيها   ريضٍ بلا مرضٍ عليها قد علا

١٥) مال النتاج بصدرها من عينة   أيضا ولا لعتيمها يتحملا

١٦) مطّالةٍ وعد الخليل الى رجا   منها الوعد غدارةٍ يتمثلا

١٧) لا هيب بالجحضا ولا مدعولة   إلا ولا بمغرغرٍ صفر الحلا

١٨) الا مقانات البياض بحمرة   كالتبر مخلوطٍ معه ذهب علا

١٩) لا بالقصيره بالقيام وقد بنت   بين القصيره والطويله منزلا

٢٠) قد قلت له بالله ما مني بقى   إلا الجما والجسم غيره البلى

٢١) والقلب عندك من زمان مولّع   ما صد يومٍ عن لقاك ولا سلا

٢٢) قالت وهبتك مهجتي وحشاشتي   تفدى لروحي كل ما شيت افعلا

٢٣) وحياة ربك ما بلاي سفاهة   الا ولا بغضٍ بهجرك أو غلا

٢٤) لكنني أدرى حسودٍ مبغض   هماز لماز بنا متختلا

٢٥) قلت ان هذي ليلةٍ محضوضه   ما زارنا الواش الحسود بها ولا

٢٦) ليت الصباح الا ان يكون قد انقضى   طرب النفوس فقلت ياصبح اقبلا

٢٧) قالت فقل للصبح لا يقبل ولا   نبغيه الا يستريض ويمهلا

٢٨) قلت ان دعيت الليل يصبح داجي   خفت ان تكون الأرض منه تزلزلا

٢٩) قالت عسى نحشر وحنا هكذا   ويطيل به حشرٍ علينا قلت لا

٣٠) ونريد دنيانا تدوم ولامنا   جمعٍ فلا بد ان يغيرنا البلى

٣١) قـامـت تـوادعـنـي تـقـول إلـى مـتـى ألـقـاك جـنـح الـلـيـل وانـت تـهـشـلا
٣٢) قـلت ابـشـري بالـوصل ان طـال الـبقا فـالـدهـر دولاتٍ يـمـيـل ويـعـدلا
٣٣) ويـصـادف الـلـه الـحـوادث بـالـعـمـى حـتـى إلـى مـتـنـا عـلـى ذا أو حـلـى
٣٤) نـهـضـت عـنـهـا كـن مـالـي راده وأصـد عـنـهـا وُدِّ وجـهـي يـقـبـلا
٣٥) وجـريـت أذيـال الـقـمـيـص مـغـاول جـنـح الـظـلام الـى الأغـر مـحـجـلا
٣٦) وقـضـيـت فرض الـلـه لـيـس بـكـامـل الـلـه يـغـفـر ذنـب مـن لا كـمّـلا
٣٧) ثـم الـصـلاة عـلـى الـنـبـي مـحـمـد مـا نـاض بـرق فـي سـحـاب وهـلـهـلا

ولا يرد في مخطوطات الربيعي وابن يحيى ومخطوطات هوبير إلا قصيدتان اثنتان لأبي حمزة العامري وهما القصيدتان اللتان يتكرر نشرهما ويبدأهما بالوقوف على الأطلال، أحدهما الهمزية والأخرى لامية. واللامية هي القصيدة الوحيدة، من بين القصائد التي عثرنا عليها له، التي قالها على بحر البسيط بينما بقية قصائده التي بين أيدينا كلها على بحر الرجز. وها نحن نورد القصيدة اللامية بكاملها. وذكر «الصليبي» في البيت السابع عشر قد يكون أقدم ذكر لهذه الفئة الاجتماعية التي لم أعثر على ذكر لها في مصادر الأدب والتاريخ الكلاسيكية الفصيحة:

٠١) حي الـمـنـازل مـنـقـادات الاطـلالِ مـن حـيـث يـنـقـاد جـارى الـمـا إلـى سـالِ
٠٢) سـيـل الـبـراعـيـم يـوم الـدار جـامـعـة لـي خـلّـةٍ عـن وشـاة الـسـو غـفّـال
٠٣) أيـام انـا امشـي بـعـجـات الصبـا فـرح واسـحـب بـهـا مـن ثـيـاب الـغـي الاذيـال
٠٤) مـا يـدخـل الهـم لـي بـالٍ ولا اسـمـعـه ولا أطـاوع مـن الـنـصـاح عـذّالـي
٠٥) الـلـه يـسـقـي ديـارٍ حـل جـانـبـهـا مـن مـدلـهـمٍ طـوال الـلـيـل هـطّـال
٠٦) نـاشٍ مـن الـظـل واثـمـار الـصـبـا وبـه كـهـمـاهـم الـخـيـل وان ظـيّـعـن الاطـفـال
٠٧) يـسـقـي رسـومٍ خـلـت مـن حـي سـاكـنـهـا إلـى الـبـيـوت الـيـمـانـيـات الاشـمـال
٠٨) دارٍ لـمـهـضـومـة الـكـشـحـيـن بـهـكـلـة صـفـر الـوشـاح لـمـلـقـى الـذرع مـكـسـال
٠٩) بـيـضٌ تـرائـبـهـا سـمـرٌ ذوايـبـهـا مـا احـلـى مـلاعـبـهـا فـي خـلـوة الـخـالـي
١٠) نـعـم الـجـضـيـع إلـى ما ذيـبٍ حُـجـره صـب الـجـلـيـد وغـطـى الـلـيـل الاجـبـال
١١) أضـفـت عـلَـيّ خـصـالٍ مـن ذوائـبـهـا وحـبّـةٍ مـن مـزوحٍ غـيـر زعّـال
١٢) إن قـابـلـتـنـي بـخـد لـيـس بـه نـمـش إلا الـشـويـرع وأيـضـا حـبـة الـخـال
١٣) وانـفٍ كـمـا حـد الحـسـام وخـده يـقـادي مـواطـى الصـعـو فـي عـثـعـثٍ سـالي

١٤) أبـو ثـنـايـا كـمـا الـلـولـو وداهـلـهــن سـوف الـيـديـن بـعـود الـديـرم الـبـالــي
١٥) إبـرة هـواجـيـس قـلـبي عـن تـشـعـبـه ومـن مـفـارقـك يـامـيـم انـبـرت حـالـي
١٦) وحـيـاة عـيـنـيـك يـاميم انـنـي بـطـل عـلـى الـمـنـاعـيـر والا عـنـك ذلال
١٧) مـا اسلاه كـود الصـلـيبي عن حبايـلـه يـسـلـي أو الـطـفـل عـن ديـد امـه الـغـالـي
١٨) يـاميم لا تـحسبين الـبعد يـسـلـيـنـي لا حـلّـل الـلـه قـلـبٍ دالـهٍ سـالـي
١٩) أمـسـت أمـيـمٍ بـدارٍ مـا يـبـلـغـهـا إلا عـبـلٍ طـويـل الـسـاق شـمـلال
٢٠) لـكـن فـي لـبّـتـه هـرٍّ يـنـجـرشـه نـعـم الـمـسـوحـل إلـى مـا غـدّر الـلال
٢١) مـن فـوقـهِ أبـلـجٌ تُـخـشـى عـقـوبـتـه وادلّ مـن سـايـل الـبـطـحـا إلـى سـال
٢٢) مـا هـوب زعـزاعةٍ مـرضـيـه مـغـضـبـه لـدْقـاق الاشـيـا كـثـيـر الـغـيـض فـشّـال
٢٣) إلا وِلِـيّ الـرضـا بـالـموزمـات لـه عـقـلٍ رزيـنٍ ولـلـقـالات حـمّـال
٢٤) نـقّـاض مـا فـتـلـوا فـتّـال مـا نـقـضـوا وهـو لـمـا تـنـقـض الـغـلـمـان فـتـال
٢٥) كـم تـعـتـبر بـه رجـالٍ في جـوايـزه باريـا يـديـره من الـغـلـمـان مـحـتـال
٢٦) الـمـال يـحـيـي رجـالٍ لا طـبـاخ بـهـا كـالسـيـل يحيي الهشيم الـدمـدم البالي
٢٧) يـاغـانـم ان حـل بـي أجل الـفـراق ودنا وجـانـي حـمـامـي فـكـن بي ريّـفٍ والـي
٢٨) واجـعـل عـلـى جـال قـبـري مـا يـبـيـنـه لـلـبـيـض يـابـن مـضـا في مـرقـبٍ عـالـي
٢٩) بـاغٍ إلى مـرّت الـبيض الحسان عـلـى قـبـري تـعـزّزْن لـي مـمـا تـهـيّـا لـي
٣٠) يـقـلـن يـاراعـي الـحـب الـقـديم لـنـا يـاراعـي الـقـبـر يـامـرحـوم الابـلال
٣١) يـاراعـي الـقـبـر يـامـا فـيـك فـاكـهـة الـلـه تـعـالـى يـخـفـف عـنـك الاثـقـال
٣٢) ثـم الـصـلاة عـلـى الـمـخـتـار سـيـدنـا مـا حـل بـالأرض رحـال ونـزال

ونجد في اللامية اقتباسات وإحالات إلى الرصيد الشعري الفصيح. فالبيت السادس والعشرين يذكرنا بقول حية بن خلف الطائي:

والـمـال يـغـشـى أنـاسـا لا طـبـاخ لـهـم كـالـسـيـل يـغـشـى أصـول الـدنـدن الـبـالـي

والأبيات الأخيرة من القصيدة تذكرنا بقول الشاعر العربي:

خـلـيـلـي قـد حـانـت وفـاتـيَ فـاحـفـرا بـرابـيـة بـيـن الـمـخـافـر والـبـتـر
لـكـيـمـا تـقـول الـعـبـدلـيـة كـلـمـا رأت جـدثـي: سـقـيـت يـاقـبـر مـن قـبـر

أما همزية أبي حمزة فقد اشتهرت وتناقلها الرواة والنساخ وأصبحت عرضة للتحريف الشنيع وتعددت رواياتها واختلفت فيما بينها اختلافا واضحا في الكلمات وفي عدد

الأبيات وترتيبـها بين مخطوطة وأخرى وتداخـلت مع همزية أخرى على نفس الـوزن تنسب لحمـد الغيهبان المري، ولذلك لم يعـد بالإمكان التعرف على النص الأصـلي للقصيدة. وقد لاحظت تـشابها بين روايات ابن يحيى والحاتم ومنديـل الفهيد بحيث يمكننا القول بأن هذه النصوص الثلاثة ربما يمكن إرجاعها في النهاية إلى مصدر واحد. وتختلف عن هذه الروايات رواية الذكير والتي بدورها تختلف اختلافا واضحا عن الرواية المثبتة في أحد مخطوطات هوبير. وتختلف هذه الروايات عن بعضها البعض وعن رواية الدخيل التي تفوقها كلها في عدد الأبيات، إذ يصل عدد أبيات القصيدة عند الدخيل ستا وستين. لكن الرواية الأطول هي رواية الربيعي التي تبلغ اثنين وسبعين بيتا، لكن رواية الربيعي في نظري هي الأضعف وهي التي نجد فيها تداخلا في الأبيات بين همزية أبي حزة وهمزية حمد الغيهبان المري. وقد نجد عددا من الأبيات في أحد الروايات ليس لها أثر في الروايات الأخرى. لذلك فإننا لو قمنا بضم هذه الروايات المتعددة والمتباينة إلى بعضها البعض واستخلصـنا منها جميع الأبيات التي ترد في كل منها وركبنا منهـا نصا ملفقا يشتمل على كل الأبيات التي ترد في كل الروايات لخرجنا بنص يفوق في طوله أيا من هذه الروايات. وهذا بالـتحديد ما قمت به وحصلت على هـذا النص الذي أقدمه للقارئ مع قناعتي بأنه من المستبعد أن يكون هذا هو النص الأصلي الذي أبدعته قريحة أبي حمزة. ويلاحظ أن أبا حمزة يعود في البيت الثالث والسبعين من هذه القصيدة إلى ذكر قبيلة «شبانة» التي سبق أن ذكرها في قصيدة سابقة وأشار إلى أنه ينتمي إليها.

٠١) ياخـلّتـي عـوجـوا بـنـا الأنـضـاء	**نـبـصـر بـدارٍ عـذبـة الـجـرعـاء**
٠٢) دارٍ عـفـت آثـار سـاكـن حـيّـهـا	**واوزا بـحـالـي شـوفـهـا وبـكـائـي**
٠٣) أودى بـهـا صـفـق الـرياح ولا بـقـى	**إلا الـرسـوم ومـا يـهـيـض عـزائـي**
٠٤) خـلف الـضبـيـعي في دعاثير الـغـضا	**مـقـصـد مـغـيـب الـنـجـمـة الـجـوزاء**
٠٥) ظـلّـت بـهـا عـنـسي تـدور وظـل بـي	**وجـدٍ تـوقّـد فـي كـنـيـن احـشـائـي**
٠٦) من بـاكرٍ حتى هـفت شـمس الـضحى	**لـمـغـيـبـهـا واقـتـادهـا الـمـمـسـاء**
٠٧) دارٍ لـمـوضـيـة الـجـبـين كـأنـهـا	**بـدرٍ يـفـاوج حـنـدس الـظـلـمـاء**
٠٨) أو مـشـعـلٍ جـنـح الـدجـى مـع قـابـس	**أو بـارقٍ يـوضـي مـن الـمـنـشـاء**
٠٩) فـإلـى تـبـسـم عـن ثـنـايـا ذبـل	**كـالـلـؤلـؤ الـمـنـثـور لـلـشـراء**
١٠) والا كـمـا ضـيـق الـسـحـاب الـهـامـع	**غـرّ غـريـرٍ جـادلٍ نـعـسـاء**

١١) هيفا هنوفٍ كاعبٍ غطروفة تذبح برمقة عينها النجلاء
١٢) لم تشتكي رمدٍ ولا مصبوبة كلا ولا مشبوحة قلباء
١٣) إلا كما عين الجداة من المها من غير كحلٍ عينها سوداء
١٤) بيضا مقاناة البياض بحمرة كالتبر خالطً فضةٍ بيضاء
١٥) لا بالقصيره بالقوام ولا التي جردا العظام طويلةٍ نوقاء
١٦) عريبة الألفاظ غير قريفة من قومها بالذروة العلياء
١٧) بتنا وباتت رحمة الله بيننا وحديثنا من بيننا رمساء
١٨) باتت توادعني ويذري دمعها وتقول ابو حمزه متى التلقاء
١٩) ياالله ياامولاي تجمع بيننا عند الوداع وحزة الفرقاء
٢٠) سمح الزمان لنا بطيب وصالها ثم انتحت به نية شطناء
٢١) أقفت مع عْريبٍ لكن ظعونهم نخلٍ تميل بروسها الأقناء
٢٢) ظعن قصا عنا بضامرة الحشا غرًا الجبين كريمة الآباء
٢٣) أسري لها والليل ما حت الندى وبساقتي ضواريٍ تحداء
٢٤) متقلدٍ صافي الحديده صارم ماضي الذباب ينوض في يمنائي
٢٥) يضوي به القلب الجسور على العدا نعم الرفيق بليلة ظلماء
٢٦) أيضا وحدبا في حزامي كنها سم الأفاعي أو زلال الماء
٢٧) همزتها بالنايفه من صابعي فزت فزيز الجادل الكسلاء
٢٨) ويش انت ياهالجني اللي رعتني وانا فلا جني ولا شيطائي
٢٩) أنا بو حمزه والذي يدنى له من خيل نجدٍ مهرةٍ شعواء
٣٠) شريتها واغليت فيها بالثمن خمسين ملحا جملة بعصاء
٣١) أبرّها ولا بعد جرّبتها إلا بوردتنا على الأطواء
٣٢) أنا ابو حمزه من سلالة عامر خيّالها المعروف بالهيجاء
٣٣) ما ابيع حَقّي بالسفاه ولو بقت للناظرين سمامتي حدباء
٣٤) لم تلقني يومٍ أدرّج ضِلّع إلا ولا مع ثلّة من شاء
٣٥) لم تلقني إلا على يعبوبة نوطا العنان طويلة العلباء
٣٦) ما يقدر الرجل القصير يعنّها إلا يعرّضها شبا السنداء
٣٧) شبّهت منخرها ككوكب عيلم فحّش عليه المايح الروّاء

٣٨) واذنين قلّطها المعذر كنها — كافور عيطا فوق جارى الماء
٣٩) ومعارفٍ على الترايب كنها — مْشَع الحرير ان جا لها الشراء
٤٠) والذيل منها مثل رايح مزنه — شختور صيفٍ هل منه الماء
٤١) وحوافرٍ مثل القداح مكفّيه — صمٍّ صلابٍ تجرح البيداء
٤٢) كالفهد بالأوثاب إلا أنها — خلف التوالي كنها عرجاء
٤٣) شدّيتها بحزامها وادّبتها — لين انها جت لي على مجرائي
٤٤) أنا ان لحقت البل ولا ردّيتهن — فانا جضيع القينة السوداء
٤٥) لحقت شيخ القوم ثم جضعته — جضعة جمال الصدر بالظلماء
٤٦) ذبحت منهم سبعه او ثمانيه — وردّيت جزلاهم على الهزلاء
٤٧) لعيون من تزهى الكحل في عينها — ومن غير كحلٍ عينها سوداء
٤٨) هذا وانا ما جيت حروة بيتهم — حتى ولا اكتحلت بها عينائي
٤٩) إلا ان لي هدّات ليثٍ دونها — هدّات ليث شرايع القصباء
٥٠) تأبى عن الطمع الزهيد نفوسنا — وفروجنا تأبى عن الفحشاء
٥١) حنا حصاة المنجنيق على العدا — حنا شراب السم، حنا الداء
٥٢) وحنا نديّن جارنا من كيلنا — ونديّنه دينٍ بغير وفاء
٥٣) نصبر إلى طق القصير خيارنا — من خوفةٍ تشمت بنا الأعداء
٥٤) وحنا كما حضفٍ ربا في روضة — مشروبه الما والندا وهواء
٥٥) مشروبه الما والندا متضرم — عينيه توضي كنها شمعاء
٥٦) لكن بليت بخلةٍ لم يخلقوا — إلا سبب شقاوتي وعنائي
٥٧) فان كنت يابن العم أكثر عزوه — فانا وربعي حضرة الهيجاء
٥٨) تضدّونا بالكثر وحنا نضدّكم — ضَدّ المحيم الى ورد للماء
٥٩) ترى الدجاج كثيرة أفراخها — والا الحرار قليلة الأضناء
٦٠) إلى ربى بالوكر حرٍّ أفحج — تازي جميع الطايرات حداء
٦١) وانشد سراة بني سنان كما انهم — بيض الوجوه طعّانة الأعداء
٦٢) عن سبّهم عرضي وعن تشنيعهم — وعن مجالة سبّهم آبائي
٦٣) ورا أخاك أبو منيفٍ قايل — صوبي بيوت ظليمةٍ وهجاء
٦٤) واما تميّزكم علَيّ بشعركم — سفهاً بقدري بينكم وخطاء

٦٥) وتيقّنوا كل اليقين بأنني	تركي قضاكم عفّةً وحياء
٦٦) منكم وإلا فالقريض أنا به	فطنٍ ويوجع بالكبود قضائي
٦٧) ما تذكرون البيض يوم تركتها	ترف البطون ربايب النعماء
٦٨) ينخنّكم قد طار عنهن الغطا	باسماءكم مرٍّ وبالآباء
٦٩) واجليتكم بالكره عن فرسانكم	عند احتراج الطعن بالصعداء
٧٠) والظعن ياما ذدتكم عن قربه	ذود الظوامي عن ورود الماء
٧١) عدّيتكم عنهن ولا ترعونهن	من خوفتي خليتم الأثواء
٧٢) ثم انشدوا ربيعة بن مقدّمٍ	راعي القبا والجوخة الحمراء
٧٣) يومي لحقته بالمضيق وقلت له	قدّم ووخّر ما بغيت جزاء
٧٤) في محفلٍ يندب شبانة جدهم	لم يغض لي جفنٍ على الأقذاء
٧٥) شهرت راس الرمح ثم ركزته	بالمهرة المقذولة الشقراء
٧٦) طعنت انا بالخيل طعن جيد	حتى كسيت قطيهن دماء
٧٧) واقفن عقب ورودهنّ صوادر	سكرى كسى لقطيّهن دماء
٧٨) يالله يالمطلوب ياجزل العطا	ياللي بكمت الحاسدين ادراء
٧٩) تفكّني من غي نفسي والهوى	وتجعل محلة مسكني طيباء
٨٠) إلى اجتمع شيطان نفسي والهوى	كيف النجاة وكلهم أعدائي
٨١) ثم الصلاة على النبي محمد	ما غردت جنح الدجى الورقاء